الملك فيصل بن الحسين

العراق

حدوده : شمالاً ، جبال ارمينية والاناضول . شرقاً ، بلاد ايران . جنوباً خليج فارس . جنوباً بغرب ، البادية وحدود نجد . غرباً ، البادية وحدود الشام .

الويته : الموصل ، السليمانية ، كركوك ، شبه لواء اربـــل ، ديالى ، بغداد ، الكوت ، الدليم ، الحلة ، كربـــلاء العمارة ، المنتفق ، البصرة .

عدد سكانه : نحو مليونين وتسعمئة الف [1] نفس ، منهم مليون ونصف مليون من الشيعة ، ومليون ومئة وخمسون الفاً من السنة . وثمانية وثمانون الفاً من اليهود ، وثمانون الفاً من النصارى ، واثنان واربعون الفاً من الاديان الاخرى .

مساحته : نحو مئتي الف ميل مربع

شعوبه : العرب والفرس والاكراد والاشوريـــون والاتراك والارمن .

اهم قبائله : المنتفق وبنو لام والبو محمد وربيعة وتميم والدليم وعنزى وشمّر والاقرع وعفك وما يتفرع عنها كلها من الافخاذ والبطون العديدة .

---

(١) في سنة ١٩٢٢

مذاهبه : الشيعة : جعفريون وبعض الزيديين والاسماعيليين .
السنة حنفيون وشوافع وحنابلة .
المسيحية : يعاقبة ونساطرة وكلدان وسريان كاثوليك
وروم ارثوذكس وبروتستانيون . ثم اليهود والصابئة
واليزيدية والبارسيون والهندوس والبهائيون .



جلالة الملك فيصل بن الحسين بن علي

من العُروبة الى التغرُّب

الاسلوب الغربي في المراسلة – الارقام والاسماء – اقتصاد قبيح – شرقي متحذلق – لهجة من البصرة وشتائم من لندن . مسيحي يتفوق ويتسكسك – شهم انكليزي – الفرق بين العرب والهنود – شرب الوسكي – رطانات البصرة – محطة سكة الحديد – قطار مستشرق – عربية اوردية خنفشارية – القاطرة تكسر رجلها – النجدة من اور الكلدانيين – الاعرابي وعياله المسافرون الى بغداد – القطار ينتظرهم خمس ساعات – ضابط انكليزي يحمل على الرئيس ولسون – في محطة بغداد – واين انت يا بغداد ؟ – رجـــل ينادي : بابو ، بابو . – الرطانات الاوردية – عربة الموتى – وركبتُ في جنازتي – سيارات النقل – جسر « مود » – من نزل الى آخر – اين امين الكسباني ؟ – الامينان يلتقيان – كاتب سر جلالة الملك المعظم يزين روحه في كوخ منجع – الحرية والاخاء والتنازل عن المساواة عند كاتب السر الاول – في القصر – الملك فيصل .

ابحرت من عدن اقصد الى العراق . فلما وصلت الى بمباي التي لا بد من التعرج عليها اذا كان السفر في احدى بواخر الهنـــد ، لقيت في قنصلية اميركا كتاباً من الديوان الملكي في بغداد كُتب على الآلة الكاتبة العربية هذا نصه :

بغداد – ١٠/٦/ ١٩٢٢

حضرة الفاضل امين افندي ريحاني المحترم

اما بعد التحية والاكرام ، فقد تناول صاحب الجلالة الملك فيصل كتابكم الصادر من لحج في ٧ شعبان وامرني بالكتابة اليكم معرباً

عن سروره بقدومكم العراق ومتمنياً لكم سلامة الحـــل والترحال في طريقكم اليه وتوفيقكم في ما نزعتم بهذه الرحلة لاجله .

وقد ارسلت الكلمة الى بباي لاجل تصديق جواز سفركم الى العراق . واما توجهكم الى الرياض فقد أرسل السؤال بـــه الى عظمة السلطان عبد العزيز ومتى جاء جوابه بعثنا اليكم به والسلام .

رستم حيدر

هوذا غير ما الفته في اليمن والحجاز كتاب غربي الاسلوب حتى في تاريخه ، خلو من الديباجة والتنميق وفيه الدليل على النفرة من تلك الطريقة القديمة التي تبدأ غالباً بالبسملة وتنتهي بـ ان شاء الله ، ويُخبأ الغرض من الكتابة فيها بـين مدبجات التبجيل والتمجيد او يضمّن قصاصة عنوانها « حاوي خير » . فتكون هي الكتاب يقيناً ، ويكون الكتاب الرسمي ترهة من الترهات .

قد احسن الديوان الملكي لدولة العراق المتغربة . ولكن الاحسان في الاقتباس درجات تتجاوز الخروج من المألوف العربي الى المألوف الغربي . على اني وان كنت افضل الخط على هذه الاحرف العربية السمجة ، وأرى في الكلمة المخطوطة حساً لا تظهره بـل تقتله احرف الآلة الكاتبة ، فقد استبشرت بهذا الكتاب لما يرمز اليه ، وان كان في اول سطر منه ما هو في نظري من قبيح المقتبسات . فان الاستعاضة عن اسماء الاشهر بالارقام في التاريخ لمـن المبالغات الحديثة بالاقتصاد عند الغربيين . وما كل مظاهر الاقتصاد آية في الحكمة والجمال . اما اذا قيل ان المسألة ذوقية فجوابي هو ان ذوق الشرقيين فيها ارفع من ذوق الغربيين . وفي كل حـــال ان الالفاظ اجمل من الارقام نظراً وسمعاً ومعنى . اذا كُتبت زانهـا الخط ، واذا لُفظت زانهـا

النطق .

قد استبشرتُ مع ذلك بكتاب الديوان الملكي لما قرأت خلال سطوره من المقاصد الحميدة في دولة العراق الجديدة . ورأس هذه المقاصد انما هو فك قيود التقاليد القديمة العقيمة وان كان في تاريخ الرسائل وانشائها . بيد انه يتبادر الى الذهن فكر في سؤال : هل يعد مجرد التقليد الخارجي من مظاهر الارتقاء ؟

سافرت من بُمباي الى البصرة في باخرة بريطانية من بواخر الخليج . وكان حظي فيها اني شاهدت مثالا آخر من الرقي العراقي قبل ان اصل الى العراق . اجاب احد المسافرين سؤالي دون ان يدرك ذلك ، ودون ان يحدثني . هو رجل ابيض الاديم ، اشقر الشعر ، ازرق العين ، دخل ورفيق له يتقدمان نفراً من الخدم يحملون امتعتهما وكأن أحد اولئك الخدامين اخطأ في ما فعل فانهال عليه المسافر الاشقر بالشتائم والمسبات بلغة انكليزية فيها لكنة قبيحة . اللهجة من البصرة والشتائم من حانات لندن .

عرفت بعدئذ ان رفيق المسافر ارمني وهو يعرف الانكليزية ايضاً ولا يحدث رفيقه بسواها . وما شككت بانهما عرفا اني عربي لاني كنت معلناً ذلك على رأسي بالكوفية والعقال . مر اليوم الاول والثاني والثالث فاتفق ان التقينا على ظهر الباخرة صباحاً فسلمت باللغة العربية فرد سلامي باللغة الانكليزية . ثم عرفت انه ورفيقه من تجار التمر في البصرة ، فلم يتنازلا لمحادثة غير بعض الانكليز في الباخرة . الا انه سألني ذات يوم عن الشهر الاسلامي الذي كنا يومئذ فيه ، فأجبته بكلمة فشكرني باخرى كانت الخاتمة .

بعد ثلاثة اشهر كنت وبعض الاصحاب نشاهد سباق الخيل خارج البصرة فرأيت هناك رفيق السفر الاشقر الامجد وهو يحمل ناظوره كالانكليز مطلقاً في عنقه ، فبسم لي ابتسام التزلف ثم دنا من احد رفاقي وسلم عليه باللغة العربية — التي لا لكنة فيها . فاستطلعت بعدئذ خبره اليقين فقال صديقي : هو من البصرة ، من مسيحيي البصرة ، سمسار تمر . فقلت : يظهر ان عندكم في العراق طبقة من الناس شبيهة بطبقة المتفرنجين في سوريا ، المتحذلقين المتفوقين بين قومهم ، المتمسكسكين امام الاجانب . فقال : نعم ، وهم يتشبهون بالانكليز كما ترى بحمل الناظور ولبس القفازات في الصيف .

اعود الى سؤالي : هل يعد مجرد التقليد الخارجي مظهراً من مظاهر الارتقاء؟ ان في رفيق السفر هذا جواباً واحداً لا أظن القارىء يرتاب بصحته . ولكن هناك رفيق سفر آخر وجواباً ثانياً . هناك طبيب انكليزي كان على عادة قومه الاماجد في السفر يعتزل الناس ، فيجلس في الزاوية او في كرسيه على ظهر الباخرة يدخن الغليون ويطالع كتاباً . وهو قلما يكترث بلبسه . بيد انه وان كان « بنطلونه » غير مكوي و « ساكوه » اشبه بالكيس منه بثوب مخيط ، فاذا وقف ومشى مشت المهابة في ظله وافصحت عن كريم محتده . دنا هذا الرجل يوماً مني فاعتذر وسلم وجلس الى جنبي قائلًا : انت عربي . فقلت : نعم . فقال : وعلى ما اظن من العلماء . فقلت : سائح طالب علم . فقال : هذا تواضع منك . قد سمعت من حدّث عنك في بمباي . ثم قدم بطاقته فبادلته الاكرام .

— اني مما اعرفه عن العرب ، وهو قليل ، احترم الامة العربية كل الاحترام . اقمت زمناً في الهند ، في خدمة الهنود — وليس في الطب

سياسة كما تعلم — فما لقيت جزءاً مما لقيته في بضعة اشهر في بلاد العرب على هذه السواحل — كرم الاخلاق ، الاخلاص ، الضيافة ، انك لا تجدها في الهنود . اما الشجاعة والرجولة فهما في المسلمين منهم فقط . لا اظننا نقاسي في الهند ما نقاسيه لو كان في الهنود شيء من وفاء العربي واخلاصه اذا آخاك . قد تكون طالعت تاريخ الانكليز في تلك البلاد فتعرف كم من مرة طعننا الهنود في الظهر — خانونا وغدروا بنا — بعد ان عاهدونا على الولاء .

قال هذا ودعا الخادم فطلب كأساً من الوسكي والسودا وسألني متردداً عما اذا كنت اشاركه . فأجبت بالايجاب فقال : اعرف من المسلمين من يشرب الخمر . فقلت : اني مسيحي واني آسف من المسلمين العصريين من يظنون التشبه بالانكليز منحصراً بشرب الوسكي . حبذا المسلم المواظب من هذا القبيل على دينه . فقال الطبيب : صدقت . نحن الانكليز نبالغ في الشرب — نشرب كثيراً . خذني مثلاً . اني اشرب الوسكي قبل الاكل واثناء الاكل وبعد الاكل ، واشرب بين الوجبات كما ترى وبودي لو اقتدى الانكليز بالمسلمين . فقلت ممازحاً : المسلمين الذين لا يقتدون بكم في شرب الوسكي . وكانت الضحكة مسك الختام .

عندما وصلنا الى البصرة صعد الى الباخرة موظفو الجمرك والصحة والشرطة واكثرهم من الهنود . وكنت قد ارسلت برقية من بمباي الى صديق لي في الديوان الملكي ببغداد عله يأمر في البصرة من يلاقيني ليهديني في الاقل الى محطة سكة الحديد . فوجدت نفسي ، ولا احد يسأل عني ، أغرب في هذا البلد العربي القديم مني في « كراتشي »

الهندية[1] . وانا العربي الذي قضى الايام والليالي يطالـع الحريري والجاحظ ، ويطحن كريات دماغه في طواحين الكسائي وسيبويه ، — ولا اقول الرحالة الشهير القادم من اليمن — اراني قد نزلت من الباخرة بين قوم لا افهم لغتهم . فيكلمني الحوذي بعربية يضطر ان يترجمها الى شيء من الانكليزية يُذهم . هـو ايضاً هندي . ساق جواده الاعرج يجر عربة مكسرة وفيها بقية امال مبعثرة تدعى الريحاني .

رحنا في قفر سبسب خارج البصرة ، فاجتزنا معسكراً مهجوراً ، ثم آخر فيه بعض الجنود الهنود ، ووصلنا بعد ساعة الى محطة السكة بل الى بقعة يبدأ عندها الخط . ولا محطة غير كوخ لبيع التذاكر وجدناه مقفلاً . ووجدنا خارج الكوخ ولداً عربياً ، والحمدلله ، تلطف فراح ملبياً طلبنا يبحث عن الموظف . فعاد بعد ساعة يتبعه رجل — هندي — هو مدير السكة ولكنه يحسن الانكليزية . فسألته سؤالاً تعمدت فيه التعريف عله يكرمني في الاقل بان يخصني بشقة في العربة وحدي . وكان الرجل فهيماً كريماً ، فكان لي ما شئت . اعطاني تذكرة واحلني في القطار محلاً فسيحاً فيه ماء وحمام . وكنت قد كتبت برقية الى الصديق امين الكسباني في الديوان الملكي بالعاصمة وهممت بالرجوع الى بيت البرق لارسلها فاخذها مني قائلاً : سأرسلها من هنا رأساً . ثم امر بن يعتني بامتعتي وودعني قائلاً : اذكرني لدى نوري باشا . الوداع صاحب .

الوداع صاحب . انت وان كنت كريماً لمن اغلاط الانكليز في العراق . والمسيحي المتفرنج وان كان عالماً لمن اغلاط التاريخ في العراق . والمتغرب اليوم في القشور فقط ، مسيحياً كان ام مسلماً ام

(١) كراتشي اصبحت عاصمة الباكستان .

اسرائيلياً ، لمن اغلاط الاجتماع في العراق ، بل في الشرق كله . حبذا مدنية جديدة تمتع الشعوب على السواء بثمارها اليانعة . والحق يقال ان ما ترمي اليه المدنية الحقة ، غربية كانت ام شرقية ، هو تعميم وتعزيز قياس واحد في آداب المعاملة وآداب السياسة بين الامم . فلا يستشرق الغربي ولا تستشرق الصناعة الغربية اذا ما لفحتها شمس الشرق ، ولا يتغرب الشرقي في سطحيات الحياة اذا مـــا بسم له خـادم السيد الاوروبي .

صفرت القاطرة وجرت ، فجرّت وراءها قطاراً مستشرقا جيء به وبعماله من الهند — قطاراً عسكرياً من بقايا الحرب . لا اظن امة من الامم الاوروبية او الاميركية تستخدمه لغير الشحن ، فنصلحه مع ذلك وتجدده . والقاطرات في اشد حاجة الى التصليح من العربات . بل قد تكون اجتازت زمن الخدمة فامست لا تصلح للعمل ولا يصلح فيها للبيع غير الحديد .

خرجنا من ضواحي البصرة مساء في قطار البريد « السريع » الذي يصل الى بغداد ساعة الغروب من اليوم التالي ، اللهم اذا سلمت القاطرة من عاديات الطريق . قد سلمت والحمدلله ليلا . فنهضنا صباحاً فاذا نحن في أور الكلدانيين في الوقت المعين بلائحة السفر . وهذا خادم عربـة الاكل جاءنا بكوب من الشاي قدمه من النافذة اذ لا مماشي في هذه العربات تصل الواحدة بالاخرى .

سرنا من أور الى الدراجة فوقفنا فيها وقفة نفذت بالعظم صدمتها . وقفنا فجـــأة وثبتنا تجاه العاديات ثبات الابطال . نظرت الى لائحة السفر فاذا فيها : الفطور في سماوة . ولكن خادم المائدة جاء بعد ساعة يدعونا للاكل فخرجنا من منازلنا وسرنا نلبي دعوته ونستطلع خـبر

القاطرة . فعلمنا انها ، حرسك الله ، كسرت رجلها ، وانهم ارسلوا الى أور يستحضرون قاطرة اخرى .

ولـمّت ساعات الصباح واشتد الهجير ، فصعد الزئبق في ميزان فارنهايت الى المئـــة والست درجات ، فعمدنا الى المـراوح في العربات فاذا هي مثل كل شيء في ذاك القفر نائمة ولا حياة فيها . ثم جاء الخادم يدعونا ثانية للاكل ـ الغداء . فوددنا لو ان ساعات الانتظار كلها ساعات اكل وشرب وحديث ، فتنسينا مصيبة القاطرة ومصيبتنا في فيافي العراق وقيظه .

جاء ونحن في الدرّاجة اعرابي يركب حماراً يتبعه حريمه وعياله ماشين . جاؤوا يبغون السفر الى بغداد في قطار البريد السريع ، وكان وصولهم الى المحطة بعد الميعاد بخمس ساعات فقط ، فقـــال الاعرابي يخاطب الحرمة ام عياله ، ما قلت لك يا سعيدي ان القطار ينتظرنا . وقد انتظر غيره من البدو هذا القطار المستشرق اللطيف . ثم جاءت القاطرة الصالحة من أور بعد الظهر فخرجت بنا من الدراجة وراحت تشيل بذنبها ، بارك الله فيها ، فاوصلتنا الى السماوة ساعـــة الشاي.ثم الى الديوانية التي كان قد أعد لنا الغداء فيها فقُدم عشاء بارداً .

جلست الى المائدة واثنان من الانكليز احدهما ضابط علمت من الشرائط الصفر والحمر والخضر التي على صدره انه من ابطال الحرب ، وعلم ، والله اعلم ممن علم ، اني قادم من اميركا . فسدد تواً الى الرئيس واسون اسهم غضبه .

ـ قـــد نزع من يدنا السلاح الذي لا يصلح لضبط امور العراق سواه ، سلاح القوة ، العزم ، الشدة .

فقال رفيقه : لولا تدخـــل اميركا لكنا اليوم نحكم العراق كما

يجب . فكمل الضابط قائلاً : ولخير العراق ... وما الانتداب ؟ وما تقرير مصير الشعوب ؟ الفاظ هي ليس الا . قد حكم القوي الضعيف مئات من السنين قبل ان اخترع لنا رئيسكم ولسن هذه الكلمة — الانتداب . وحكمه حيناً بالعدل وحيناً بالعسف والشدة ، بما تسمونه ظلماً . وكان الظلم احياناً انفع له من العدل . وهل تظن ان هذه الكلمات الجديدة — الانتداب — تقرير مصير الشعوب — تصلح الشؤون وتحرر الامم ، ترانا مقيدين في هذه البلاد بارادة عصبة لا سيادة لها ، نعم ، عصبة الامم ، وباراء رجل نظري يحلم الاحلام هو رئيسكم المستر ولسون ، فلا نستطيع عملاً مفيداً لا لانفسنا ولا لاهل البلاد .

اعجبني من الرجل يقينه وصراحته ، فالجرأة المعنوية مستحبة دائماً . وما هو بعسكري فقط بل من غواة الادب ايضاً . رأى معي كتاباً ل ه . ج . ولس فاستعاره ولم يُعده الي . لعل التبعة في ذلك على القطار لاننا بعد ان دخلنا كل الى منزله لم يرَ بعضنا بعضاً . وعندما وصلنا الى بغداد الساعة الثانية بعد منتصف الليل — اي بعد الميعاد بثماني ساعات — كان هو ممن خرجوا من القطار وانا ممن ناموا فيه . والسبب في ذلك ان ذاك الضابط ، وان كان غريباً ، كان له في المدينة بيت يأوي اليه اية ساعة كانت اما انا فلم انتظر احداً من اصدقائي ان يوافيني الى المحطة بعد منتصف الليل ولم أجز لنفسي طرق ابوابهم او ابواب الفنادق في تلك الساعة . فنمت ، فلم يشأ على ما اظن ان يزعجني ، فغنم بلطفه الكتاب .

نمت ساعة فايقظني صوت ينادي : بالهندية : بابو ، بابو ! فتحت النافذة فاذا باحد الحمالين يبغي خدمتي ، فطردته وعدت الى النوم . ثم

بعد دقائق سمعت طارقاً يطرق زجاج النافذة ، فنهضت فاذا بحمال آخر ينادي بابو ، بابو ! فعمدت الى العصا وكلمته بهــــا . أتتبعني لغات الهند الى العاصمة عاصمة العباسيين وقطب دائرة الشعراء المحدثين ! رح يا ملعون الوالدين ! وبعد هذا السب والتهديد بالعصا نمت ثالثة ونهضت باكراً ، فنظرت من النافذة يميناً ، ثم من النافذة يساراً ، فلم اجــــد لبغداد اثراً من الآثار ، ولا رأيت على الرصيف احداً من النـــاس . فساورني شيء من الغم ، كثير من الغم . فقلت في نفسي : الماء البارد للغم خير دواء وعندك الماء يا رجل . فاستحممت ولبست ثيابي هادىء البال متشبثاً بالآمال ، عل وجهاً من وجوه الاحباب يشرق على المحطة مع شروق الشمس .

جاءت الشمس وحدها ، ولم اجد عند المحطة حتى من ينقل امتعتي الى المدينة . فبعثت الولد الذي هددته بالعصا يستحضر عربة وبت انتظر ، واقفاً وحدي في ذاك القفر المفجع ، افتش في الآفاق الاربعة عن بغداد . وبعد نصف ساعة ظهر في جهة النخيل عربة لماعة ، يقودها جوادان مطهمان ، يزين رأسيهما الريش الاسود الكبير . فذكرني الريش بخيل عربات الاموات في جنازات النصارى . فقلت في نفسي : وانت في جنازة ــ جنازة آمالك ، وغرورك ــ في جنازة ما كنت تتمثله وتتصوره ببغداد .

ركبتُ في جنازتي ، فساق الحوذي خيله شرقاً الى النخيل فبدا لنا عندما دخلنا على جانبيه شيء من حركة المقاهي في ظلال تخللتها اشعة الشمس . ثم سمعت صوتاً يذبح ، وقرقعة ترجرجت الارض منهـــا . هي عربات النقل ــ سيارات الجيش الهائلة ــ يسوقها جنود الانكليز . والغريب ان غبارهـــا وروائحها نفعتني تلك الساعة فأخرجتني من

الجنازة . هي طلائع الحياة في بغداد اليوم . اما بغـداد الامس ففي كتاب الف ليلة وليلة تجدها .

وصلنا الى الجسر ، جسر « مود »[1] وهو مثل الارجوحة معلق بشاطئي دجلة ، بيد انهـــا ارجوحة من المراكب تنحني تحت ارجل المارين ، وتئن تحت دواليب العربات ، وتصفق تحت سنابك الخيل ، وتصرخ صرخات مزعجة تحت اثقال سيارات الجنود . وكان النهر في صباح يوم من ايلول صغير الموجة لطيفها ، يسير سيراً بطيئاً هادئـاً ، ومجذاف البلام[2] يحرك اللجين فيه فيستحيل ذهباً في اشعة الشمس . وهناك في الجهـــة الشرقية تبدو بغداد بقبابها الزرق ومآذنها البيض ، وقصورها على الشاطىء تعيد الى من كان شغفاً بمجد الزمان الغابر شيئاً من البهجة والانشراح . بيد ان تلك البهجة قصيرة الاجـــل ، فهي لا ترافقه الا في النهر او الشط بلغة اهل العراق .

عبرت الجسر فاذا انا في شارع مهشم حزين ، كأنه بحاناته ومقاهيه قد خاض عباب الحرب العظمى ، ووصلت الى نزل « مود » فوجدت العمال يشتغلون في الترميم ،فقصدت الى نزل آخر ، ،فاذا الخدم يغسلون صحن الدار وكان صاحب النزل لا يزال نائماً . فخاطبني الخادم يقول : ولا غرفـــة واحدة فارغة ولا سرير . ثم دلني على فندق في الجوار المبارك فبادرت اليه ، فاذا هو كالأمل الضائع في صدر الجائع ، فانزلت مع ذلك امتعتي ودفعت الى الحوذي مـا تبقى من ثروتي ، ودخلت

---

(١) Gen C. F. Maude هو الجنرال ث ف مود قائد الجيوش البريطانية الذي فتح بغداد (في ٢٤ جمادي الاولى عام ١٣٣٥ ، ٩ اذار سنة ١٩١٧)فسمي الجسر باسمه .

(٢) النوتي صاحب البلَم . والبلَم — اللفظة هندية — زورق للعبور والنزهة.

الغرف واحدة بعد الاخرى ابغي احسنها فـــاذا هي مثال المساواة الاعلى — كلها صغيرة مظلمة باردة عفنة . فقلت لا حول ولا .

فطرت ثم سألت الخادم عن الهاتف فقال انه لا يزال نائماً . فقلت: التلفون اريد . فقـــال : تجده في « المدْجَسْتيك » فسددت خطوات اليأس الى النزل ذي الاسم الجليل ، فلقيت صاحبه في الباب يستنشق هواء الصباح ، فقلت : عندكم تلفون ؟ فقال : نعم .

— وهل تظن ان احداً في قصر الملك يجاوبني الآن اذا تكلمت ؟

— ومع من تريد ان تتكلم ؟ مع امين الكسباني ؟

امين الكسباني عندي كان الجواب . بُهِتُ حقاً ثم قلت: أساحرٌ انت؟ فقال : انا من تل كيف [1] . ثم نادى الخادم وامره ان يدلني على غرفته .

كان الباب مفتوحـــاً اذ لا نوافـذ للغرفة غير واحدة تفتح مثل الباب على الرواق . وكان الامين في ثوب النوم واقفاً امام المرآة يزين روحه ، وكانت ذقنه قد ابيضت بالصابون فلما رآني ابيض منه الوجه كذلك ، ووقعت الموسى من يده . ثم رشقني بالشتائم السود .

— متى وصلت ؟ وكيف تصل قبل الوقت المعين ؟ هذه قباحـة منك . تشغل اصحابك بك فيستعدون للقائك ثم تباغتهم هذه المباغتة. وانت الاديب المشهور بالذوق والكياسة .

— ألا تسمح بكلمة ؟

— سامحك الله . مـــاذا اقول لمن ناموا باكراً البـارح لينهضوا باكراً اليوم لملاقاتك ؟ القطار وصل قبـل الوقت المضروب ؟ يقولون لي : ولماذا لم ينتظرنا في المحطة؟ واذا قلت : انه رجل مثل القطار شاذ

(١) تل كيف قضاء في لواء الموصل واهله موصوفون بالحذق والنشاط .

الطبع والسلوك ، فهم لا يفهمون ولا يعذرون .

ــ ألا تسمح بكلمة ؟

ــ سامحك الله . قد خاب ظني بذوقك وادبك .

فقلت وانا لا ازال واقفاً في الباب صابراً على ذي السباب : وانت الذي قضيت حياتك في انكلترا ، وكنت على العمل في الليل ادأب منك في النهار ، ايزعجك الرواح الى المحطة منتصف الليل او بعده ؟ وهب انك علمت ان القطار لا يصل قبل الصبح فما كان عليك ان تحيي الليل ، اكراماً لصاحبك على الاقل ، لاعباً بـ « البريدج » ثم تخرج ساعة الفجر الى المحطة تستنشق الهواء ؟ الحق يقال يا امين ان سنة في بغداد اورثتك الكسل والخمول .

بعد هذه المشاتمة تصافحنا وسلمنا سلام الاحباب . وجلست اطالع آخر اعداد جريدة الـ « تيمس » الانكليزية التي كانت على الارض .

ــ نحن علمنا ان القطار تأخر ولكنه من عادته ان يتأخر اثنتي عشرة ساعة .

ــ ما لنا والقطار عسى ان يكون حالك احسن من حاله . يظهر انك الفت الظلمة في انكلترا فأحببت الاقامة في مثل هذه الغرفة .

ــ هذه بغداد ، فنادقها شبيهة بعضها ببعض ، ولا فرق بينها في غير الاسماء والاجور .

ــ أحقاً ما تقول ؟ الا يوجد في هذا النزل غرفة ترمقها الشمس ولو بلحظة ؟

اجاب الامين متبرماً : هذا احسن نزل في بغداد وقد نجد لـــك غرفة فيه .

فقلت مصراً على المشاكسة : ومثل هذه الغرفة ؟

ــ افلا تتنازل الى مساواتنا ؟

ــ اذكر ان للمساواة اقنومين آخرين هما الحرية والاخاء . وبما اني قد آخيت النجوم واقترنت ثانية بالحرية في بلاد العرب فسأتنازل عن المساواة وانام على السطح .

فسبني بالانكليزية ثم العربية ثم قال : جرحت ذقني ــ الا تخشى البرد ؟

ــ اخشى العفونة اكثر من البرد . اين قصر الملك ؟

ــ لا قصر لجلالته .

ــ واين هو نازل ؟

ــ خارج السور ــ خارج المدينة .

ــ اوَ لا يؤذن لي ان انصب خيمتي خارج المدينة ؟ صدقني يا اخي اني امرض في مثل هذه الظلمات . قد صرت بدوياً فلا يطيب لي غير الفلاة أليس عندكم بدو خارج المدينة انزل ــ عليهم ــ معهم ؟ ...

فقال الامين متهكماً : ولكنك تتنازل فتزور جلالة الملك اولاً . أليس كذلك ؟

ــ طبعاً ، طبعاً . لا تؤاخذني

فضحك وفرح بغلبتي . فأخبرته اذ ذاك بما جرى لي منذ وصولي الى البصرة حتى وصولي الى محطة بغداد ، فرثى لحالي وغفر لي نزقاً انساني الواجب . وكنت قد علمت وانا في بمباي بالجراحة التي اجريت لجلالة الملك واخبرت في الطريق الى العاصمة انها نجحت وان جلالته قد تماثل الى الشفاء .

ــ أفلا ينبغي ان اكتب الى جلالته كتاباً اهنئه بصحته واعلمه

بوصولي ؟

سنكفيك مؤونة الكتابة .

وكان قد أتم صديقي تزيين روحه ، ولمّ شعث طبعه ، فعادت اليه السكينة ، وتجلى فيه الحلم والوقار ، فصار اسلس من الماء ، كما يقال ، وألين من اعطاف النسيم . امّ الهاتف في النزل وعاد يقول : ستقابل جلالته اليوم . فسررت بذلك .

وبعد ساعة ركبنا سيارة اميركية سارت بنا هائجة تثير النقع في شارع بغداد الجديد ، الطويل المستقيم ، الوحيد ، الذي يمتد من اول المدينة جنوباً الي آخرها شمالاً ، وخرجنا من البوابة عند نظارة الدفاع ، فمررنا بثكنة الى اليمين وواصلنا السير في طريق الاعظمية حتى وصلنا الى بستان على احدى حواشيه بيت صغير انبأت المواعين في فنائه بانه بيت فلاح يكثر عنده الحليب واللبن . بل هو بيت مدير الزراعة الخاص لجلالة الملك . ثم نزلنا عند بيت آخر صغير داخل البستان ، شبيه ببيوت الـ « اسبستوس » التي كانت تبنى ايام الحرب بساعة وتنقل من مكان الى مكان ، فاذا هو مفروش بالفرش الاوروبي ببساطة افصحت عن ذوق لطيف ، وفيه خزانة كتب معلق فوقها صورة الملك فيصل مع الكاتب الافرنسي اناطول فرانس ومنضدتان وراء احدهما شاب عصري ، وضاح المحيا ، عالي الجبين ، حسن البزة ، بادر الى استقبالنا ، وكان في ترحيبه مثله في لبسه انيقاً دقيقاً — رسمياً . هو رستم حيدر السكرتير الاول لجلالة الملك ، وصاحب الرسالة التي صدرت بها هذا الفصل .

شربت القهوة في ديوانه ، وتلمست في محدثي بالرغم عن حجاب الرسميات نفساً هادئة كيسة ، وعقلية راقية ، وتمتعت بعدئذ اثناء

اقامتي في بغداد بشيء منها وراء الحجاب ، ساشاركك ايها القارىء به . اما الآن فهو الذي عجل ، شكراً له بتحقيق ما جئت من اجله . عمد الى الهاتف على منضدته ثم قال : سيدنا يقابلكم الان .

سرنا في ظلال النخيل الى بيت لا يعد في القاهرة او في بيروت فخماً ممتازاً . ولكنه مبني على شاطىء دجلة في بستان من النخيل . في جوار الامام الاعظم ، وقبالة المكان الذي ازدهرت يوماً فيه المدينة المدوّرة ، مدينة المنصور . دع عنك ذكر المنصور والامام العظيم . البيت قصر حتى ولو كان مجرداً عن المحاسن الطبيعية والتاريخية والدينية كلها . هو قصر لان ملك العراق الاول مقيم فيه .

حيّانا جنديان في الباب ، ثم استقبلنا احد الضباط فدعانا لغرفة فيها طاولة عليها سجل الزائرين ، ثم جاء احد الامناء يدعونا الى الطابق الاعلى فدخلنا وراءه ردهة للجلوس ، وبعد هنيهة فتح باب افضى بي الى غرفة النوم . وكان الاسبوع الثالث من الجراحة وكنت أول من حاز شرف الاستقبال بعدها .

الامير فيصل بن الحسين بن علي بن نُمي ، ابن بنت الرسول ، قائد جيش الشمال العربي في الحرب العظمى ، ممثل العرب في مؤتمر فرساي ، حامل لواء الوحدة العربية في اوروبا ، حاكم الشام ، ملك سوريا ، ملك العراق ! قد تتبعت وانا في نيويورك هذه المراحل الباهرة في ذلك التاريخ ، تاريخه القصير المجيد ، وانا معجب به كل الاعجاب ، مكبر منه الاعمال والاقوال والمقاصد العالية ، متأسف اني لم اجتمع بـه في باريس او في لندن او في الشام محتفظ بكل شاردة من شوارد الشوق والامل . ثم وفق الله فارتحلت شرقاً الى البلاد العربية فكانت عاصمة العباسيين ، خصوصاً لان فيها بطل

احلامي ، نوراً من الانوار المقصودة ، ومحجة من المحجات المنشودة .

لم اشعر وانا داخل الى غرفة النوم ، على ما تقدمها من الرسميات الملكية الغربية ، بأني داخل على ملك من ملوك العرب ، هو من اكبرهم شأناً واصغرهم سناً . ذلك لان الخيال مني رافق فيصلاً في الخمس السنوات الاخيرة فادناني منه فاحسست تلك الساعة ان وراء الستار صديقاً لي واخاً في الجهاد الوطني . وما كان الحسّ خؤوناً .

دخلت فاذا بجلالة الملك جالس على الديوان مكشوف الرأس ملتفاً بعباءته ، فوقف وتقدم يلاقيني وسلم عليّ سلام الاخوان . وكان وجهه الذي شبهه احد كتاب الافرنج بوجه المسيح اشبه به يومئذ على ما اظن منه في الماضي . لان المرض اكسبه لوناً تخف فيه حدة الحياة وتكاد تضمحل ،فيمتزج امتزاجاً لطيفاً بالنور الناعم الجالس هادئاً في عينيه ، ثم جوّفه قليلا تحت العظم الاعلى فصار يظهر ما فوقه اي الجبين اكثر اتساعاً ورفعة ، وما دونه مستطيلاً مسنماً . اما في صوته وابتسامه واشاراته فقد كان اشبه بجلالة الملك ابيه .

شكرته على جميل تعطفه في استقبالي يوم وصولي وهو لا يزال في حال النقه . فقال انه يشاركني في الشوق الى المشاهدة . ثم هنأته بصحته وبعيد جلوسه — العيد الاول لملك العراق الاول — فابتسم ابتسامة فيها بعض الغم وانتقل بالحديث الى رحلتي .

— انها رحلة عجيبة يا امين وسيكون فيها ولا شك فوائد كثيرة للعرب . كنا مرافقين لك معجبين بكل ما وصلنا من اخبارك وبما طالعناه في الجرائد عنك .

ثم سألني بعض سؤالات عن البلدان التي زرتها وعن امرائها وحكامها . وكان لا يزال الضعف يمنعه عن الافاضة بالحديث .

– احب ان تخبرني كل شيء وسنجتمع في مـا بعد اجتماعـات عديدة .

فاستأذنت بالانصراف فوقف وهو يقول . سنجتمع في ما بعد . ثم اعتذر ، وكان ذلك من جميل التواضع فيه ، عما اسماه تقصيراً في القيام بواجب الاكرام والضيافة .

ولكنه بعد ان خرجت دعا الكسباني فحدثه بكلمة، فعادالصديق الي يقول : امش – الى النزل بامر جلالته وقـد امر ايضاً بسيارة اثناء اقامتك في بغداد .

لا حكومة ولا انتداب

بركان الثورة – الملك في يد الاطباء – سقوط وزارة النقيب – عيد الجلوس غير المأنوس – اتحاد الاحزاب – مطالبها – ملحق من النهضة الوطنية العراقية – استعباد الف سنة واستعباد سنة واحدة – وفد الاحزاب في قصر الملك – الشيخ مهدي البصير يخطب في الجمع – رئيس الامناء يعقب على كلامه – وصول المندوب السامي مهنئاً بعيد الجلوس – الشعب يصيح : ليسقط الانتداب ! ليسقط الانكليز – مطالب زعماء النجف – عريضة العشائر – عزل رئيس الامناء – الفرق بين السر ارنلد ولسون والسر برسي كوكس – اقفال الاحزاب الوطنية نفي الزعماء الوطنيين – الامة ساكتة ساكنة – وحجج الاسلام لايحتجون – تأسيس حزب وطني معتدل – سياسة الملك فيصل – لا حكومة ولا انتداب .

يوم وصلت الى العراق كان بركان السياسة قد انفجر من كل جانب ، فترامت من النجف الحمم ، واستعرت في بغداد النيران ، وتصاعد بين الرافدين اللهيب والدخان . في ذاك الحين قام الزعماء يطلبون رفض الانتداب، وانتخاب المجلس النيابي ،واعلان الاستقلال التام ، وتأييد العرش . وسمع بين الاصوات الشاعر الحكيم يقول :

انا شاعر يبغي الوفاق موحد بين الشعوب سبيله الارشاد
ما الفرس والاعراب الا كتفا عدل وما الاتراك والاكراد
لم تكفنا هذي المطامع فرقة حتى تفرق بيننا الاحقاد

وكانت الحركة قد اشتدت قبل عيد الجلوس بايام ، فأثرت بصحة الملك وزادت بآلامه التي كانت الزائدة المعوية سببها ، فاشار

الاطباء بجراحة فاجلها جلالته الى مـــا بعد العيد . اما الوطنيون ، المتطرفون منهم والمعتدلون ، فلم يؤجلوا مما سعوا اليه شيئاً . ويظهر ان صوت الشاعر اثر فيهم يومئذ تأثيراً حسناً فحملهم على توحيد المطالب والآمال .

وقد كان لحملاتهم ثلاثة اهداف ، اي الوزارة والحكومة والملك نفسه ، فاستخدموا لها ثلاثة انواع من السلاح ، سلاح الكلام . صوبوا مدفعيتهم على الوزارة التي كان يرأسها السيد عبد الرحمـن النقيب فاستقالت ، وطاروا بطياراتهم الخطابية فوق دار الانتداب فأزعجت المندوب السامي فبات حائراً لا يدري ما يفعل ، ولا سيما ان الجيوش يومئذ لم تكن تكفي لاخماد فتنة صغيرة .

اما جلالة الملك فجاءته الوفود يوم العيد ، اول عيد لتاج العراق ، عيد الجلوس — غير — المأنوس — يهنئونه ويطالبونـــه والحكومـة المشارفة بالوعود التي مر العام الاول عليها دون ان ينجز شيء منها . وكان في البلاد حزبان سياسيان ، الحزب الوطني العراقي وحزب النهضة العراقية ، فاتحدا بعد ان تشاقا واجتمعا اجتماعاً خصوصياً في اليوم السابق لعيد الجلوس قررا فيه بالاتفاق رفع احتجاج الى « اعتاب صاحب الجلالة المعظم » ونقطة الدائرة فيه ان الامة كانت تنتظر بعد التتويج حكومة دستورية نيابية ، فمرت السنة الاولى ، والحكومـة لا تعرف أدستورية هي ام نيابية ام ملكية مطلقـــة . ان الامة يا صاحب الجلالة تكابد انواع الاضرار الناتجة عن سوء الادارة « المتغلب عليهـــا نفوذ البريطانيين المنافي لروح الاستقلال لانهم اتخذوا سياسة التفريق وغيرهامن الاعمال غير المشروعة رائداً لهم » . وهذه الوزارة ، وزارتهم اسقطناها لانها كانت العامل الاعظم في مناهضة آمال الامة .

وبما ان المجلس النيابي لم يتألف حتى الآن ، وبما ان خطر الانتداب يهدد استقلال البلاد وحرية العراقيين ، فقد اجتمعت هيئتا المركز العام للحزب الوطني العراقي ولحزب النهضة العراقية وقررتا عرض الحالة على جلالتكم مسترحمين صدور الارادة الملكية في ما يلي :

اولاً — الكف عن الاعمال المار ذكرها ولا سيما التدخل البريطاني في الامور الادارية .

ثانياً — تأليف وزارة من ذوي الجدارة المخلصين لكي تطمئن الامة باصلاح الحال .

ثالثاً — ان لا تعقد اية معاهدة ولا تجري اية مفاوضة بشأنها قبل تأليف المجلس النيابي .

ولم يكتف المركز العام لحزب النهضة العراقية بهذا الاحتجاج وهذه المطالب فأصدر مذكرة خصوصية من قلب البركان ، فيها لفتات الى الماضي وأنّات . شكا الحزب سياسة الحكومة التي لم يرَ الشعب في خلال سنة منها فرقاً بينها وبين سياسة الحكومة الاحتلالية ، ورفع احتجاجه الى العالم المتمدن ، والى كل من يؤلمه صوت شعب مهضوم الحقوق ، منبعث من طيات افئدة مليئة بالآلام والاماني . — اننا نحتج على ساسة حكومة بريطانيا الاستعماريين ، وعلى الانتداب وانصاره الممقوتين في البلاد ، في هذه البلاد العراقية التي كانت تستعيد في مثل هذا اليوم من العام الماضي ذكرى المنصور والرشيد والمأمون ، « مؤملة ان يكون بلسماً للجروح البليغة التي احدثها الاستعباد السنة الماضية في جسمها النحيف . » [1]

(١) والغريب العجيب ان امة استعبدت الف سنة ظلت حية سليمة الحواس

وهذه الامة ذات الجسم النحيف والقلب المفعم بالآلام والآمال تعيد عيدها السعيد بتتويج جلالة مليكها وارتقائه عرش العراق الذي « شيد فوق جماجم الشهداء » وتبعث الوفود ليرفعوا الى جلالته اصدق عبارات التبريك والخطباء ليسمعوه انينها وشكواها .

جاء صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر آب وفد الحزبين المذكورين ومعهم جمهور من الانصار احتشدوا في فناء القصر ، فطلب الزعماء من الملك ان يأمر بمن يمثل جلالته لسماع الخطب هناك . فأمر جلالته رئيس الامناء لينوب عنه . فخطب في الجمع خطيب الحزب الوطني العراقي ، الشاعر الضرير الشيخ مهدي البصير ، فهيج في رئيس الامناء الشجون فانتصب خطيباً . وحق له الكلام اذ كان الملك انابه عنه وحق له ايضاً ان يبرهن على حماسة — وقيل حماقة — فيه أنسته انه موظف في البلاط ، وان المندوب السامي لبريطانيا العظمى قادم في تلك الساعة ليهنىء جلالة الملك بعيد الجلوس ، وان عليه هو واجب الاستقبال والترحيب . وقد اتفق انه بينا كان حضرة الاستاذ رئيس الامناء يخطب ضد الانتداب اقبل المندوب السامي السر برسي كوكس ورجال الوكالة البريطانية لاداء التبريك فاستقبلهم الجمع صارخاً : ليسقط الانتداب ! ليسقط الانكليز !

وكان قد وصل لسعادة المندوب في اليوم السابق برقية من زعماء النجف يؤكدون له فيها انهم لا ينكرون « صداقة حكومة بريطانيا العظمى ، صداقة خالية من المحاباة » ويعلمونه برغائب الامة العراقية

....

تابع شرح صفحة ٣١٨

لتشكو استعباد سنة واحدة في هذا الزمان ، ولم يُسمع لها في الالف سنة مضت صوت ولا صدى .

« التي لا يمكنها التنازل عنها مهما كلفها الامر » وهي المواد الآتية: اولاً – رفض الانتداب بتاتا واعلان حكومة بريطانيا العظمى بالغائه رسمياً. ثانياً – مراجعة حكومة جلالة ملك العراق لوزارة الخارجية لا لوزير المستعمرات. ثالثاً – رفع تدخل ممثلي اية سلطة اجنبية لان في الامة نفسها الجدارة لادارة شؤونها.

هذا من علماء الشيعة وجلالة الملك يومئذ معهم. الا ان بعض العشائر لبوا الدعوة التي قيل ان دار الانتداب مصدرها، فاجتمعوا يحتجون على العلماء ويعلنون ولاءهم للانكليز. ثم قدموا عريضة بذلك الى المندوب السامي، فكانت بيده حجة على جلالة الملك. وقد اشار فخامته بان سيعلن العريضة اذا كان الملك يرفض المعاهدة. فلم يكن لينتظر والحال هذه مثل تلك المفاجأة القبيحة في القصر. اما اذا قيل ان من حقوق الشعب – واليوم يومه – ان يفاجيء السياسيين في اي وقت واي مكان كان فيجب ان يكونوا متأهبين له دائماً، فمن النادر ان يحدث في بلاط ملكي – في غير وقت الحرب او الثورة – مثل هذا التظاهر الرسمي – رسمي هو بوجود مندوب الملك واشتراكه به – ضد دولة من الدول العظمى. بل هي اهانة اقتبلها السر برسي كوكس هادىء البادرة ساكناً. واظنه سُر بها. فقد كان متردداً كما قلت في اتخاذ خطة الشدة لقمع ما كان ينذر بثورة اخرى في العراق مثل ثورة سنة ١٩٢٠، فازالت حادثة البلاط التردد، وشحذت فيه عزماً كان موضوع ريب الناس.

ولكنه انكليزي واكثر الانكليز في مثل هذا الموقف واحد. فلم يدع السر برسي الحادث المؤلم يحول دون واجبه تلك الساعة، بل دخل على الملك وهنأه بعيده الاول. ثم اجتمع بعدئذ به فدار بينهما

حديث كانت له نتيجتان ، الاولى في البلاط الملكي وهي عزل رئيس الامناء ، والثانية في دار الاعتماد وهي الخطة التي اخمدت النيران التي كانت تتصاعد من بركان السياسة المتفجر .

لا ريب ان الاقدار ساعدت السر برسي كوكس في عمل لم يكن من طبعه ومبادئه . لانه رأياً وخلقاً وسياسة نقيض سلفه السر آرنلد ولسون الذي سبب او عجّل ثورة ١٩٢٠ فالسر آرنلد حاد المزاج ، سريع الغضب ، شديد البأس ، عالي الهمة ، قصير النظر ، يضرب ولا يحسب للعواقب حساباً . والسر برسي لين العريكة ، هادىء البادرة ، طويل الاناة ، يعالج الامور بالحنكة التي قلما تلجأ الى القوة . على انه ادرك ما في الحادث من الخطر على منصبه اذا كان لا يقف موقف كل انكليزي بل كل انسان أُهين رسمياً وأُهينت حكومته وأمته . قد يقال ان الملك في عزله رئيس الامناء اعتذر ضمناً وصراحة عما بدا . ولكن ذلك لا يكفي . بل قد يزيد الوطنيين شغباً وهياجاً . فاقدم على العمل الذي اقتبله العراق ساكناً ساكتاً .

قلت ان الاقدار ساعدته في سياسة الشدة لان جلالة الملك بعد عيد الجلوس سلم نفسه الى الاطباء ، وكانت الوزارة قد استقالت فاصبحت الحكومة كلها بيده — خلا له الجو — فاصدر امره باقفال الحزبين ، الحزب الوطني العراقي وحزب النهضة العراقية ، وبتوقيف جرائدهما ، ثم نفى الى هنجام [1] الزعماء وفيهم الحاج جعفر ابو التمن وحمدي افندي الباججي والشيخ مهدي البصير ، واخطر مجتهدي الكاظمين السيد حسن الصدر والشيخ مهدي الخالصي

(١) جزيرة في الخليج الفارسي تجاه بندر عباس .

بتسفير نجليهما ، وهما ، من زعماء النهضة ، الى ايران ففعلا دون تردد او احتجاج .

وكان جلالة الملك رهـــين الاطباء وموضوع الاشاعات المتعددة ، منها اشاعة موته التي ضجت لها العاصمة واتخذها انصار المنفيين ومن تبقى من الاحزاب الوطنية حجة على سكوتهم واخلادهم الى السكينة غير انه يستغرب سكوت ثـــلاث من « حجج الاسلام » المجتهدين وهم : السيد ابو الحسن الاصفهاني والسيد حسن الصدر والشيخ مهدي الخالصي ، وقد كانوا كلهم زعماء النهضة واعلامها . على انـ بعض العشائر الموالين للعلمـــاء ، من لم يعلموا بسكوتهم ، ظلوا يطالبون بسقوط الانتداب ، فسودت الحكومة الانكليزية صحيفتها في ارسالها الطيارات ترمي اكواخهم بالقذائف النارية ، وقد كانت في غنى عن ذلك لأن من ينادون مع المجتهدين يسكتون اذا هم سكتوا .

اما اذا نظرنا في الأمر نظرة اجماليـة فقد افلح المندوب السامي وان كان قد اخمد في عمله ولو الى حين نار الوطنية التي رأى نفسه بعدئذ في حاجة اليها ليقاوم بهـــا الاتراك ودسائسهم في الموصل وفي بلاد الاكراد . ولكنه في ذاك الحين لم يكن ليبغي غير امرين ، عقد المعاهدة الانكليزية العراقية وتأسيس مجلس نيابي يجيزهـــا . وكان متيقناً ان الامر الاول لا يتم الا في ثبات الولاء والمؤازرة بين دار الانتداب وبيت النقيب . فسعى اولا في تأسيس حزب سياسي معتدل دُعي بالحزب العراقي الحر يرأسه السيد محمود بن السيد عبد الرحمن النقيب ليكون عوناً للحكومة في انتخاب المجلس . ثم سعى في اعادة الوزارة المستعفية لانجاز المعاهدة . وكان جلالة الملك يؤثر غير النقيب رئيساً ، والمندوب السامي للاسباب التي بسطتها لا يبغي سواه . وسترى

بعدئذ كيف ان يُخذل صديق الانكليز الاكبر في العراق بعد توقيعه المعاهدة المشهورة .

على ان هناك فترة مشؤومة مظلمة ، قبل التوقيع وبعد رجوعه الى الرئاسة ، كانت السيادة الانكليزية فيها مشلولة حقيقة ومعنى . فلم يكن في البلاد لا حكومة وطنية تذكر ولا انتداب . ذلك لان الملك فيصلاً عمد بعد شفائه الى سياسة ازعجت دار الانتداب ، فقبل محوقلاً برئاسة النقيب ، وظل متمسكاً باهداب احزاب تلاشت ، ووطنيـــة لجأت الى التقية واستشعرت السكون .

مآدب الغمّ

حديث الملك - وعد المستر تشرشل - المعاهدة - الانتداب - فضل الحكومة الانكليزية في تتويج فيصل - الشيخ خزعل - السيد طالب النقيب - الملك بين جميلين - الملك محاط بالاعداء - الفرنسيس والاتراك والعجم وابن سعود - « ليدافع عن البلاد من يبغي احتلالها » - الكآبة والغم - مأدبة ملكية - حديث الخواتين الانكليزيات - سكوت الملك - احد الاربعة الذين يكفرونهم في العراق - مأدبة في الهويدر - الخاتون - الطيور والازهار وانواع الشاو والملك الكئيب - مائدة الملك الخاصة - سؤال في التطور والانقلاب - رأي السكرتير البلشفي - الشبقة والعمامة والطربوش - مصادر الغم ومآدبه .

سمعت الانكليز في العراق يقولون : هـذا فيصل الذي اقمناه ملكاً ينقلب علينا في السنة الاولى . ولكن المسئلة وجهة اخرى، ولجلالته قصة غير قصة الانكليز قصها عليّ في المقابلة الثانية .

كان لابساً صباح ذاك اليوم ثوباً مدنياً وسدارة من لونه . وكان لا يزال في وجهه اثر من العياء والضعف . بيد انه في حديثه كان شديد اللهجة صريحها . صوت ناعم فيه قوة اليقين ، وعين شهلاء يضطرم احياناً نورها الهادىء ولا يروع .

— يطلبون مني عقد المعاهدة وفيها نص صريح على الانتداب . وفي بعض موادها غموض ، فتحتمل التفاسير العديدة ، فيفسرها القوي في المستقبل لتوافق مصلحته وسياسته . وهذا لا يجوز . هذا غير ما عاهدوني عليه في لندن . قد صارحتهم هناك كما اصارحك الآن . قلت للمستر تشرشل اني لا اقبل ان اكون ملكاً على العراق الا بشرطين

اولين ، وهما استقلال البلاد والغاء الانتداب . فقبل المستر تشرشل بذلك ، ووعدني وعداً ايده بكلمة الشرف . وهو ان الحكومة الانكليزية تعترف باستقلال العراق وتساعد العراقيين بتأسيس حكومة وطنية ذات سيادة تامة وتلغي الانتداب . كل ذلك في مقابل معاهدة نعقدها والحكومة البريطانية تضمن لها الحق ان يكون المستشارون والاخصائيون في حكومة العراق من الانكليز فقط وتضمن لها ايضاً بعض الحقوق في اقتصاديات البلاد ... وهم اليوم يقولون اني انقلبت عليهم . وليس في ما اقول وافعل غير الثبات على العهد والولاء. هذا وعد المستر تشرشل . كلمة شرف بالغاءالانتداب. والآن يا اخي امين تجيئني حكومته بمعاهدة تبتدىء بذكر الانتداب وعصبة الامم ثم تكرر هذه الالفاظ في اكثر موادها . لا والله . لا اوقعها ولا آذن بتوقيعها . ولا تتألف وزارة جديدة[1] قبل ان يجيئوني بخطة صريحة وكلمة صريحة بانهم سيبرون بالوعد .

هب ان هناك سوء تفاهم او ان المستر تشرشل وعد وعداً حالت بعد ذلك السياسة الانكليزية دون تنفيذه ، فموقف الملك فيصل مع ذلك لا يُقدح به واكثر العراقيين يرفضون الانتداب ويمقتونه . فهل يسلام يا ترى اذا فضل ان يكون ملك العراق على ان يكون فعلاً مأمور الانتداب وفوق يده يد المندوب السامي ؟ ولكن هناك امراً آخر لا يتغاضى عنه من أحب العدل والانصاف . ان فضل الحكومة الانكليزية في تتويج الملك فيصل يوازي في الاقل فضل العراقيين الذين بايعوه . فقد كان في البلاد يوم وصوله الى العراق وقبله عدد من طلاب المُلك منهم الشيخ خزعل خان حاكم عربستان فانسحب

(١) كانت حكومة الانتداب تحاول يومئذ اعادة تأليف وزارة النقيب .

بايعاز من الانكليز . ومنهم ذاك الداهيـة العراقي السيد طالب النقيب الذي كان يطوف البـلاد يومئذ بصفتـه وزير الداخلية ساعياً في سبيل المجد الوهاج ، طالباً العرش والتاج ، فتعقبه الانكليز والقوا القبض عليه بحيلة لا تليق بهـم واجلوه عن البلاد . وكان نقيب بغداد السيد عبد الرحمن عونهم الاكـبر على ابن نقيب الموصل السيد طالب . لذلك قيل ان النقيب كان النصير الاعظم لفيصل وهنـاك الامير عبدالله الذي كان يؤثره العراقيون على اخيه . اما طريقـة الانتخاب فيكفي ان اقـول ان الموظفين السياسيين في الالوية كانوا يديرونها .

ليس الملك فيصل ممن ينكرون الجميل . ولكنه بين جميلين ، همـا احرق من نارين ، جميلُ من سعى في سبيله وجميلُ من بايعـه . وفي الاثنين مبدآن لا يخطىء من يروم الحقيقة الوطنية في تفضيل مبدإ من بايع منهما على مبدإ من سعى . على انه من الخطل ان يعادي الملـك الانكليز او ان تعادي الامة العراقية الحكومة البريطانية . قـال جلالته بصراحة لا صراحة بعدها : — تراني اليوم محاطاً بالاعداء ولا صديق لي غير الانكليز . فمن اين لي بحليف لو شئت المحالفـة . في الغرب ، في سوريا الافرنسيون وهم اعدائي . وفي الشمال الاتراك وهم يكرهونني . وفي الشرق الاكراد وقد تفلتوا من يدي . والعجم وهم يدسون الدسائس بواسطـة الشيعة على حكومتي . وفي الجنوب ابن سعود وهو دائماً يهددنا بالاخوان . من لي اذاً غير الانكليز ؟ وهل يعقل اني انقلب عليهم ؟ بل هم المنقلبون يا اخي امين ، هم يعدون الوعود ولا يبرون بها .

عاد جلالته الى وعد المستر تشرشل فذكرني بجلالة ابيه يوم كان

يضرب لي الامثال ويرمز بالرموز ليبرهن على انه من النادر ان يجد المرء من يفوق الانكليز في المراوغة والتلون ونقض العهود . - يطلبون مني التصديق على معاهدة لا تمكنني من تأسيس حكومة ثابتة قوية - والحقيقة انه لو عقدنا هذه المعاهدة يستحيل علينا القيام بها . . ترانا الآن نعجز عن تأسيس جيش وطني لان العراقيين لا يلبون النداء ، لا لان الوطنية فيهم ضعيفة . لا . لا . ولكنهم يقولون : اذا كان الانكليز ينوون احتلال البلاد تحت طي الانتداب فليدافعوا هم عنها . اوَ لا ترى الحق يا اخي في هذا القول ؟

كان يتكلم جلالته بصوت هادىء وكان النور في عينيه ساكناً . مع ذلك كنت ارى في انامله دليل الاضطراب اذ كان يخرج الخاتم من بنصره فيلعب به كأنه سُبحة ثم يعيده اليه . وعندما كان يتكلم عمن يحيط به من الأعداء رفع السدارة عن رأسه ووضعها على الديوان فانار جبينه العالي وجهه فتراءى فيه شيء من الحسن جليل ، ولا سيما ان لونه الحنطي كان لا يزال مائلاً الى الاصفرار . ان في الملك فيصل حسناً جذابا ، وان في حديثه لهجة بليغة مقنعة . ولكن الغم الذي يكمن في قلبه يظهر مراراً في طرفي فمه وفي ابتسامه .

اني اعتقد ان في الملك فيصل مزية روحية تحبب اليه المثل الاعلى في الحياة على انه وان كان ملكا يرى نفسه في هذا المضمار مثل كل من تعشق الكمالات ، وسعى اليها جاداً ، فرأها كقوس قُزح بعيدة دائما عنه . وهذا في نظري احد اسباب الغم ، رفيق جلالته الدائم ، وان توارى احياناً عن الابصار . هو الغم الروحي الذي يتضاعف في علو المناصب وخطورتها فيكون في الملوك ، وان ندر ، أشدّ منه في غير الناس .

قد تشرفت بمقابلة الملك فيصل ومجالسته ومحادثته في احوال شتى، رسمياً وغير رسمي، في البلاط وخارج البلاط، على المائدة الملكية والى السماط البيتي، فلم اره مرة ناعم البال مطمئناً. بل كان الغم مثل الظل في اذار يظهر في مجلسه ويختفي اذا تكلم واذا سكت.

دُعيت الى مأدبة اعدها في القصر كان جالساً اليها في صفين متقابلين عشرون من كبار موظفي الحكومة العراقية والوجهاء وعشرون من رجال حكومة الانتداب وبعض حريمهم. وكان جلالته جالساً في الوسط والى يمينه قرينة المندوب السامي اللادي كوكس والى شماله القائد العام للجيش الانكليزي في العراق. وكان قبالة الملك اخوه الامير زيد والى يمين الامير المندوب السامي والى شماله آية النساء في العراق وشمعة سياسته الخاتون جرترود بِل. وكان بيني وبين المندوب السامي سيدة انكليزية. وقبالتي سيدة اخرى، فعلمت من الواحدة انها حزينة جداً لانها تحب الموسيقى ولا تستطيع ان تقتني «بيانو» في بغداد، واخبرتني الاخرى بان زوجها، وهو احد المستشارين، لا تهمه الازياء ولا قراءة الروايات. وكان القائد العام يحدث جارته بما صدر حديثاً من الروايات في لندن. ثم سمعت السر برسي كوكس، وهو من غواة الصيد وله المام بعلم الحيوان، يسأل ما اسم ال Badger في اللغة العربية فساح السؤال حول المائدة شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً، وعاد الى فخامة المندوب خائب الامل.

اما جلالة الملك فكان اثناء المأدبة، منذ قدم الحساء الى ان جاء الخدم بالقهوة، صورة من صور اليأس المحزنة، وقد احاط نفسه

بسيدة لا تحسن العربية وبقائد قاتم الجبين لا يحسن كذلك العربية ولا الافرنسية .

قد رأيته غير مرة يتثاءب وما سمعته والمندوب السامي يتحدثان ولو عن الطقس . وقلما هم ذلك الانكليز . فلا اظنهم ما عدا المس بل احسوا بواجب في مثل هذا المقام تفرضه عليهم في الاقل آداب المائدة فلا يتحدثون بامور خصوصية لا تهم جلالة الملك ولا تهم المدعوين من الوطنيين . فقد رأيت حتى جعفر باشا ، وهو يحسن الانكليزية ، يجتهد في محادثة جارته التي ابت ان تخرج من موضوع الرواية الانكليزية الاخيرة ، وما يهم العراقيين بل الشرقيين يا ترى من رواية انكليزية تبحث في احوال اجتماعية محلية وقتية في قرية من قرى انكلترا ؟

اما جاري الاخر مجيد بك الشاوي ، وهو احد الاربعة الذين يكفرونهم في العراق [1] والرجل الوحيد الذي تجاسر ان يلبي الدعوة الملكية في ثوب عادي ، فلم يكن ليهتم بحديث الخواتين والمستشارين بل كان يحسو الشمبانيا الكأس تلو الكأس ، ويضحك لنكات جاره سكرتير مجلس النظار السيد حسين افنان . وقد كان لمجيد بك فضل على جلالة الملك تلك الليلة لانه في سلوكه فتح باباً للمجون . كان واقفاً عند الوداع الى جنبي فقال له الملك وهو يشير الى شربه الخمر . شفتك والله شفتك . فأجاب الشاوي وهو يشير الي – لم ادرك وجه الشبه في ذاك الحين – هذا صديقي لانه صديق المعري . ونحن يامولانا لا نعرف غير المعري والخيام . فضحك الملك فيصل وكانت ضحكته الاولى

---

(١) الثلاثة الاخرون هم : جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي وكاظم الدجيلي . وسيجيء الكلام عليهم ولهم .

في تلك الليلة الحافلة بكبار العراقيين والانكليز ، المشعشعة بنياشين الوزراء وحلي الخواتين .

اني اذكر مأدبة اخرى خارج القصر وخارج المدينة ، مأدبة ويوما في البساتين وفي معزل عن الرسميات الغربية . هنـاك في شرقي بغداد على نهر ديالى ناحية بعقوبـــة وهي جنة العراق الشمالي : وبالقرب من بعقوبة بلدة على شاطىء النهر تدعى الهُويدِر ، فيها ملاّك كريم هو فخري بك آل جميل دعا جلالة الملك وحاشيته لقضاء يوم في ضيافته . ودعا ايضاً بعض الانكليز ، منهم المس بـل والمستر كورنواليس مستشار الداخلية ، وصديقهم السيد محمود ابن النقيب .

نُصب السرادق بين اشجار الليمون والرمال ، وفُرش الطريق اليه بالسجاد ، ومدت المائدة تحت النخيل المزين بالذهب والياقوت من التمر ، وكان الهـواء مفعماً بطيب الرياحـين والازهار ، والطيور تغرد على الافنان وفي مخبآت الادغال ، والكروم مثقلة بافخر العنب المتعدد الانواع والالوان ، والمس بـل تروح وتجيء حاملة غصناً من الرمان او عنقوداً كبيراً من العنب فتقدمه جاثية لجلالة الملك .

وجلالة الملك — لله من غم يأبى الحصر في القصور ، فيرافق صاحبه الى البساتين في أجمل بقعة من ارض الله . لله من غم يجلس فوق العرش ويلصق بصاحب العرش حيثما حل وجال . لله من غم لا يحترم حتى الانكليز ، وقد يكون له في الانكليز ما يرويه ويغذيه . اظـن ان المس بل كانت تدرك ذلك فتحاول بما لها من فصاحة ولطافة ان تخفف وطأته ، وتبدد في الاقـل ظلاله من بساتين آل جميل في ذاك اليوم الجميل ولكنها والأسفاه لم تفلح . وقد تكون في ما اسرفت زادت الظلال قتاماً .

جلس الملك في الخيمة بعد ان جال في البستان يلعب بسبحته ويدخن السيكارة تلو السيكارة. وكان التعب بادياً في وجهه والحديث لا يجيء إلا تكلفاً واجتهاداً. هي السياسة وهموم العرش. اضف اليها هماً جديداً جاء من الشمال. فقد كان لانتصار مصطفى كمال وقع في العراق لم يسر الملك ولا الحكومة. وكان بعض الموظفين في الموصل يفاوضون بطل الترك في الاناضول. وهؤلاء الانكليز لا يدعون جلالته ساعة وحده، يلزمونه كالظل في كل مكان. حبذا الحكمة في سلوكهم وفي سلوك الوطنيين الذين يظنون ان المآدب لا تتم دون ان يدعى اليها احد من دار الانتداب.

ان الملك فيصلاً لاقرب ملوك العالم اليوم الى الديمقراطية، الامر الذي لا يروق على ما اظن الانكليز الشغفين بابهة الملك. وقد يضر بجلالته سلوك لم يتعوده الموظف الانكليزي فيسيء فهمه او يعتمد الاساءة. لا احد ينكر ان يوماً في البساتين لجدير بان يكون عدو الرسميات. فلا بأس اذا جلس جلالة الملك على الديوان. وهو في ثوب قائد الجيش العراقي، ورفع خوذته. ولكن الموظف في الحكومة الذي يجلس قبالته على كرسي ويمد رجليه، كما لو كان في بيته، ولا ينزع قبعته عن رأسه، يسيء الادب ويمتهن حرمة التاج. لا اظن ان موظفاً انكليزياً مهما علا منصبه يجلس كذلك في حضرة جلالة ملك بريطانيا العظمى، والملك فيصل دقيق الشعور شديد الحس، لا يستطيع ان يقول الكلمة التي تؤلم او تسيء ولا يتبسط في الحديث ويجيد اذا كان في حضرته من لا يرتاح اليه. خصوصاً اذا كانت مجالسه كلها التي حضرت خالية من الذكاء الحر او من الحرية المتشردة — البدوية.

ان الملك فيصلاً لفي حاجة في بلاطه وفي مجالسه غير الرسمية الى

من يحسن النكتة ، الى ظريف خفيف الروح ، الى نديم رسمي . قد عرفت اكثر من في القصر وما عرفت فيهم من يستطيع ان يقوم بهذه الوظيفة المهمة .

كنا ذات ليلة جالسين الى مائدته الخصوصية ولم يكن غيري وناجي بك السويدي وحسين افنان من خارج البلاط فسألني جلالته سؤالاً ادهشني لاول وهلة، ولكني علمت انه كثيراً ما يتباحث و كاتبا سره الفيلسوفان بمثل هذه المواضيع. قال جلالته: ما رأيك يا امين في التطور وفي الثورة؟ أتعتقد ان عوامل العمران والتمدن الحقيقية هي اصح في التطور أو في الانقلاب ؟ فقلت: اني ممن يعتقدون بالنشؤ والارتقاء في الطبيعة وفي الاجتماع ، وان التطور معراج الانقلاب الحقيقي المفيد الثابت وان الطفرة محال ، وان للثورات دائماً رد فعل يعود بالناس الى ما كانوا فيه ، وغيرها في هذا الباب .

فعارضني كاتب سر جلالته رستم حيدر ، وهو شيعي سوري من بعلبك ، فشرع يتكلم بالثورات والانقلابات في السياسة وفي الدين كأنه دنتون او كأنه لوتيروس . النشوء بطيء. التطور ضرب من البلادة . والامة التي تنتظر وتتوكل عليه تفقد مثل الامة الانكليزية كثيراً من مزايا النفس الجميلة التي تظهر في الفنون والاجتماعات .

حانت مني اذ ذاك التفاتة الى الفيلسوف الآخر في الديوان الملكي، الى ذاك الانكليزي في خلقه وعقله ، العربي في قلبه وشعوره ، الى امين الكسباني فرأيته يرفع بحاجبيه ويهز برأسه ، ثم سمعته يقول مخاطباً الملك : رستم يا سيدنا بلشيفي في آرائه .

فقال حسين افنان : والحمدلله انه كذلك في آرائه فقط . فضحك جلالته ضحكة كانت الاولى والاخيرة تلك الليلة . ثم سألني سؤالاً آخر

ظننته مضحكاً ولكنه لم يضحك احداً .

— ما رأيك يا امين في العمامة والبرنيطة . واي شكل تظنه يصلح لنا في العراق ؟

فقلت : ان العرب في تهامة وفي اليمن يلبسون الشبقة اي البرنيطة وهي صنع ايديهم ليقوا رؤوسهم حر الشمس . وهم عرب مسلمون . فما ضر العرب في الاقطار العربية الاخرى وخصوصاًفي التي يشتد فيها الحر مثل العراق لو اقتدوا بهم ؟

وكان ما قلت بخصوص الشبقة في اليمن جديداً عند كل الحضور ما عدا جلالته لانه قاد مرة حملة على الادريسي في تهامة ، وعلم بتلك الشبقات الكبيرة المصنوعة من القش . فدار الحديث على الخوذة وقبعة البلاط : السدارة ، والطربوش ، ولم يجيء احد بكلمة تضحك اثناء البحث على اننا عندما صعدنا من غرفة المائدة الى ردهة الاستقبال وجلس الملك ورستم والسويدي والكسباني الى طاولة صغيرة يلعبون الـ « بريدج » خرجت والباقون الى الرواق فاسمعنا هناك افنان نكات وددت من اجل جلالته لو انه اسمعنا بعضها على المائدة .

لا اظن ان ما يسود الملك فيصلاً من الغم ناتج عن همومه الحاضرة فقط . لا اظن ان تاج العراق وحده مصدر تلك الابتسامة الناعمة المحزنة وذاك السكوت الذي يسبق الكلام الى القلوب . ان فيصلاً ، في ما لمع من نجم سعده وهوى في البسع السنوات الاخيرة ، لمن الامراء القليل عددهم في العالم اليوم . فقد دانت له ساعة قصيرة من الزمان ، فظلمته الحوادث في تسابقها حوله وعليه ، فلم يتمكن لسرعتها وتعددها من الانتفاع بها .

هوذا امير عربي كريم في دائرة خضراء من الشهرة ، حولها دائرة حمراء من السياسة الوطنية ، يمازجها اصفرار من دسائس السياسة الدولية .

وهذه لعمري حقيقة مآدب الغم – مأدبة الشهرة التي يتلوها ومع الرأس ، ومأدبة النصر في الحرب يتلوها فشل السياسة ، ومأدبة الكرم العربي الممدودة فوق ضريح المطامع العربية .

اما وقد اشرت الى اسباب الغم في جلالة الملك ، فينبغي لي ، وانا من المعجبين بالبيت الهاشمي الذي نصر الاحلاف وجند الوفاً من العرب على الاتراك والالمان في الحرب العظمى ، ومن المحزونين لانه لم يفز بكل ما كان يبغيه ويحارب من اجله ، ومن الطالبين الحقيقة قبل كل شيء ، ينبغي لي ان اعيد النظر في تلك الحوادث التي كان الامير فيصل قطب دائرتها . هي جزء من سيرة حياته التي اصبحت جزءاً من التاريخ العام .

الثوره في العراق

شهر الحرية شهر شؤم على طلاب الحرية – ولا زعامة ظاهرة – خسارة العراقيين والانكليز – فساد الاخلاق في اوروبا – روح التمرد في الشرق – حكومة هندية في العراق – ضعف السيادة المعنوية – تأجج الفتنة – العشائر والمفاتيل – السر آلمير هالداين – المعاقل الانكليزية – سوري مقتدر حكيم – السر آرنلد ولسون – في سياسته سوط ونكتة – السر برسي كوكس – في سياسته كثير من الزيت – بلاغ المندوب السامي – حكومة وطنية – السيد عبد الرحمن النقيب الجيلاني – اعضاء المجلس الوطني – اعمال المجلس – السيد طالب النقيب – العراق يطلب ملكاً – السيد طالب يلبي الطلب .

ان الشهر الذي استقرت فيه السيادة الافرنسية في سوريا لشهر شؤم على السيادة البريطانية في العراق . فقد اختار الافرنسيس تموز ، شهر الحرية ، ليقاوموا شعباً مجاهداً في طلب حريته ففازوا . وقد حاول العراقيون في هذا الشهر ان يخرجوا البريطانيين من العراق فلم يفلحوا . وكانت الثورة قد اشتعلت وتأججت في انحاء العراق كلها ، من النجف الى بعقوبة ، ومن المنتفق الى الموصل وبلاد الاكراد .

جاءت الكلمة من العلماء ، وفي مقدمتهم كبير المجتهدين في النجف ، فقامت العشائر ترددها وتعمل بها ، فارسلت روح التمرد في البلاد سمومها ، فالتهمت الاخضر واليابس في المضارب وفي المدن ، وعمد الوكلاء السياسيون لبريطانيا الى البرق والتلفون يطلبون النجدات من البصرة ومن العاصمة . انه لا عجب ما حدث في العراق بعد الاحتلال البريطاني .

هوذا بلد لا صحافة فيه تذكر ، ولا طرق مواصلات حديثة صالحة ، ولا قيادة . تعمه الثورة فتربط اطرافه بعضها ببعض ، ثم تستمر اشهراً وهي تزداد قوة وهولاً .حتى ان العاصمة بغداد كادت تسقط في حوزة الثائرين .

قد انفقت الحكومة البريطانية ملايين من الليرات وفادت بالوف من الجنود لاخمادها ،وكانت خسارة العراق كذلك كثيرة فادحة. هي ثورة شبيهة بزلزال هائل لا بحادث اجتماعي يديره مع ذلك العقل والحكمة، فلم يكن فيها شيء من الخير لأهل العراق ولا للحكومة المحتلة .

بيد انها نبهت البريطانيين الى حال في البلاد العربية بل في الشرق جديدة، وذكرتهم بحال في اوروبا هي بنت الحرب العظمى وام الانحطاط المعنوي، تلك الحال العامة وقد كادوا ينسونها. ان لكل عمل رجلاً ولكل رجل يوماً،ولكل يوم سياسة . قد كان البريطانيون السبب الأول في ثورة العراق في صيف ١٩٢٠ لأنهم نقلوا الى البلاد حكومة هندية قديمة عقيمة،هندية في طريقتها ، هندية في سياستها ، هندية في رجالها . والهنود بجملتهم لا يفهمون العرب ولا يحترمونهم ، وقد كان رئيس الحكومة البريطانية في هذه الفترة رجلا من الطراز الاول من ابناء بريطانيا الأشداء الذين شادوا في الماضي معالم مجدها غير انه وجد في زمان غير زمان اجداده ، وبين شعب غيرت نفسيته وعقليته حوادث الايام.

السر آرنلد ولسون[١] الحاكم بالوكالة يومئذ في العراق هو كهل في العقد الرابع من العمر ، ومن الانكليز الذين كانوا يحملون السوط في القرن الماضي ويحكمون بموجب ضميرهم لخير انكلترا اولاً ثم لخير الناس . وكانوا في تفوقهم محسنين ، وفي ظلمهم عادلين ، قوتهم في

(١) Sir Arnold Wilson .

يقينهم ويقينهم في اخلاقهم ، واخلاقهم متأصلة في فضائل شعب مجيدة، اظهرها الشرف والعدل والصدق والثبات . بيد ان هذه الفضائل امست اليوم من التقاليد المحترمة وقد يعيد الزمان الى التقاليد الحياة والعمل .

قام السر آرنلد ولسون يمثل في العراق امة افقدها الحرب كما افقدت امم اوروبا جمعاء كثيراً من قواها المعنوية الروحية ، فصارت تفادي بعدلها في سبيل شرفها، او تتنزل عن شرفها لتحفظ مقامها ،او تتساهل بالصدق لتظل ثابتة القدم مسموعة الكلمة ، او تتغلب وتتلون دفاعاً عن نفسها وكيانها. رجل من حديد يمثل امة من فولاذ اعتراه الصدأ ،قام في العراق يحكم باسم الله وبريطانيا العظمى ، فوجد شعباً ظنه كشعوب الهند في القرن الماضي يقبل بالتأديب ويشكر دائماً المؤدب .

قلت ان الحرب افقدت الامم الاوروبية كثيراً من قواها المعنوية ، الادبية والروحية ، ولم تكسب الشعوب العربية بل الشرقية غير حب الحرية والاستقلال ونزعة في سبيلهما لا تماثلها شدة حتى النزعات الدينية . ولكن الحروب والثورات ، اذا كسرت قيود الظلم ، لا تعلم المظلومين النزاهة والحكمة والعدل ، ثم العمل المدني الذي فيه هذه الفضائل الثلاث . فقد الانكليزي من قواه المعنوية ما كانت تقدر في الاحكام بنصف نفوذه، ولم يبق في العربي بل الشرقي من الخوف والاحترام ما كان يقوم مقام النصف الآخر . كانت بريطانيا العظمى تحكم ثلاثمئة مليون من الناس بثلاثين الفاً من الجنود . هي حال ولّت ايامها . فقد ارسلت سبعين الفاً من جنودها الى العراق، وسكانه لا يتجاوزون الثلاثة ملايين، ولم تستطع ان تخمد الثورة في اقل من سبعة اشهر .

السبب بسيط . ان كلمة الحاكم العادل المستبد تستوجب في تنفيذها، اذا كان لا يحترمها الناس، قوة الشرطة او قوة الجيش . فكيف بها اذا كان

الناس ينفرون منها ويقاومونها. زرع السر آرنلد ولسون، اثناء قيامه مقام المندوب السامي، بذور الفتنة، وهو متيقن انها بذور الحكمة والخير، وشاركه في الزرع وفي الحصاد رجل آخر من رجال الحكم الانكليزي هو السر آلمر هالداين[1] قائد الجيوش البريطانية يومئذ في العراق. ويظهر ان السر آلمر كان احرص على صحته وراحته من السر آرنلد. فقد اعتاد في الهند ان يتنقل مع الحكومة في كل فصل من فصول البرد والحر، فجاء العراق في آخر الشتاء، وما كاد يدخل الربيع الذي هو النصف الاول من صيف هذا القطر حتى احس بجرّ حمله على التجوال في جبال العجم. ثم نقل مركز القيادة العامة الى تلك الجبال بينا البلاد كانت تتمخض بالثورة. اضف الى ذلك ما كان يحدث بينه وبين وكيله المندوب السامي والوكلاء السياسيين من الخلاف الذي زاد في خلل الادارة وفي امتداد الفتنة. حتى ان السر آرنلد بعث ذات يوم يشكوه الى الحكومة بلندن فجاءت برقية من الوزارة الحربية تسأل القائد العام ماذا يعمل في جبال العجم؟ ماذا يعمل في الجبال ونيران الفتنة تشتعل في السهول؟

اما الغاية من هذه الثورة فقد انحصرت كما يظهر بأمرين، اخراج الانكليز واعلان الاستقلال. على ان نهضة يديرها او يوعز بها، اويدعو لها المجتهدون لا تخلو من نزعة دينية تتخلل دعوتها السياسية. فقد كان المجتهدون في النجف وبعض الزعماء مثل يوسف السويدي وجعفر ابي التمن يعملون سراً في اثارة الفتنة. اما العشائر فقد كانوا مستعدين وهم دائماً يستعدون لتلبية اي دعوة تخلصهم من دفع الضرائب الباهظة التي تفرضها الحكومة عليهم وتحاول تحصيلها بالطرق الفعالة، القانونية

(١) Lieutenant Gen. Sir Aylmer Haldane

وغير القانونية . فما همهم شيء ولا عرفوا بشيء من مقاصد الزعماء المحتجبين الخفية .

وقد كانت للعشائر قوة في الدفاع والقتال عجزت دونها الجنود البريطانية . ارض العراق كما هو معلوم مسطحة بسيطة لا يكاد يكون فيها ملجأ يلجأ اليه المقاتلون في الغارات او مكمن يكمنون فيه فبنى العشائر لهذه الغاية المفاتيل . والمفتول هو برج صغير مستدير ، علوه من خمسين الى سبعين قدماً ، فيه درج غالباً لولبي يتصل بغرفة في رأسه فيها كوى كبيرة من الداخل صغيرة من الخارج يرصد منها العدو ويطلق منها النار . وهي تختلف حجماً فيمكن ان يحاصر فيها من الخمسة الى العشرين رجلاً عدة ايام . قد رأيت منها . في اليمن وفي نجد ولكنها قليلة هناك .

اما العراق فقد كان فيه الوف من المفاتيل عند دخول الانكليز . بل كان في بعض الجهات لكل بيت او في الاقل لكل حي مفتول . المفاتيل ! انما هي الويل الاكبر على الجنود الانكليزية ، وهم في الفلوات معرضون دائماً لنارها ولا كنف يحميهم منها . فلا عجب اذا عدت حصن العراق المنيع ، والسلام الوحيد الذي يخشاه العدو . ولا عجب اذا كان العدو في الزحف والهجوم يسعى اولاً في هدمها ، ثم يبني في السهول ما يقوم مقامها لجنوده وهو المعقل او ما يسمونه بالانكليزية Block House وليس هناك ما يحول دون ذلك . فالمعقل مربع بسيط له اربع نوافذ عالية وليس له باب ، وفي الداخل مواقف للجنود تمكنهم من الرصد واطلاق النار . قد بنى الانكليز الوفاً من هذه المعاقل ، وفي الطريق من البصرة الى بغداد كثير منها وليس بين الواحد والآخر اكثر من مسافة ميل واحد .

اما هدم المفاتيل فيستلزم قوة وشجاعة واستبسال . وقد بذل الانكليز فوق ذلك كثيراً من المال . فكانوا يتقدمون الى شيخ القرية او شيخ القبيلة بشركٍ او بمعروفٍ او برشٍ من الرصاص او المال ، فيضغطون عليه او يستغوونه او يرشونه او يغدرون به — والحرب خدعة . قد بذل الانكليز كثيراً من المال ومن الرجال في هدم المفاتيل . ولم تكن الطائرات التي حملوا بها على العشائر لتساعد كثيراً ، الا اذا كانت المفاتيل داخل القرية التي يضربونها ، فيهدمون ويحرقون فيها ليهدموا تلك الحصون الصغيرة المخفية او ليروعوا اهلها المتمردين . لا اظن ان في مظالم الحكم مظلمة تورث العراقيين بغض الانكليز وتثير عليهم ثائرة الاحقاد مثل الطائرات ، ذاك السلاح الطائش الاعمى الذي يقتل النساء والاطفال والابرياء مع المذنبين .

وعلى الرغم من الطائرات قد حاصر الثائرون كثيرين من الضباط والوكلاء السياسيين وهم في مراكزهم يدافعون عنها الى ان تجيئهم النجدة او يُقتلوا . وقد كان اكثر الموظفين من الجندية فلم يحسنوا الادارة خصوصاً في بلاد اجنبية ، ولم يكن بينهم وبين اهلها شيء من العطف ، فضلاً عن الخلل في الادارة العسكرية التي كانت قيادتها العامة معتصمة في جبال العجم . فلا عجب اذا استمرت الثورة سبعة اشهر والعرب فيها فائزون بالرغم عن المعاقل المشيدة والمفاتيل المهدومة .

وعلى ذكر المفاتيل اذكر سورياً سعى في هدم مئات منها وكان من المفلحين . فقد كان في خدمة الانكليز الادارية بعض السوريين من المقتدرين المخلصين ، كما جاء في تقرير المندوب السامي الى دائرة

المستعمرات . « وقد كان احد سوريينا المقتدرين المخلصين عوناً كبيراً لنا في هذا الموقف الحرج » ولكن كاتب التقرير لم يذكر اسم ذاك السوري . هو الجندي المجهول . فها اني عملاً بالواجب الانساني لا الوطني اذكر اسم من يستحق ضعفي هذا الثناء . هو سوري من يافا كان نائب متصرف البصرة يوم كنت هناك ، فخدم الحكومة العراقية الانكليزية في ايامها الاولى العصيبة خدمات جليلة في وظائف شتى ، وحاز جزاء خدماته في النجف خصوصاً وسام الدولة الهندية .

كان جاد غاوي معاون الوكيل السياسي في الشامية [1] وكانت المفاتيل في تلك الايام كما قلت اشد اعداء الجيوش البريطانية وامضى سلاح بيد العراقيين . فتمكن جاد غاوي في الشامية من حمل العرب على هدم مفاتيلهم ولم يبذل من اسباب النجاح غير اللطف والمعروف وقوة الاقناع . داراهم وهو في دارهم ، فاكتسب ثقتهم وحب مشايخهم ، فهدموا من حصونهم ما يتجاوز الالفين منها ، وكانوا بعد ذلك من اصدقاء الحكومة والانكليز . قد لا يذكر اسم جاد غاوي في التقارير الرسمية ، ولكنني سمعته حيثما سرت في العراق وما سمعته مقروناً بغير كلمات الحب والتكريم .

اما السر آرنلد ولسون ، فلا يزال في العراق من الانكليز لا من العرب ، من يعجب به بالرغم من هذه الثورة ، ويستحسن خطته السياسية ، ولا غرو ، فهو على نزقه وتسرعه وعنفوانه حر الطبع ، صريح الكلمة ، طلق المحيا . وهو حنطي اللون ، اسود الشعر والعين ، كأنه ايطالي او اسباني . وله شيء مما كان لروزفلت من المغناطيس

(١) هو قضاء الشامية من متصرفية الحلة وعدد سكانه سنه ١٩٢٢ نحو خمسة وستين الف نفس كلهم شيعيون ومن العشائر .

في المصافحة والحديث. قد كان الرئيس الاميركي الشهير يضرب بيده على كتف من يحييه عند المصافحة، فاصبحت من عاداته المحبوبة. اما السر آرنلد فلا يضرب بيده بل بلسانه او باشارة من اشارات النفس التي تظهر في اللحظ او الابتسام او في نبرات الكلام. قد اجتمعت به في البصرة بعد ان رجع من انكلترا ليرأس شركة النفط الانكليزية الفارسية في عبّادان. فسلم كأنه من المعارف. وعندما تبادلنا السلام تبادلنا كلمة بخصوص السر برسي كوكس. وكان قد علم السر آرنلد باني انتظره لارافقه في السفر الى العُقير فقال على الفور: ستنتظر طويلاً. فقلت: اذا كان لا يصل في هذا الاسبوع اسافر وحدي. فقال: حسناً تفعل. هي الطريقة الوحيدة في النجاح فخطر في بالي اذ ذاك ما قاله الشاعر العربي فترجمته له.

وانما رجل الدنيا وواحدها   من لا يعول في الدنيا على رجل

فقال السر آرنلد على الفور: عند العرب الشعر ولا ريب، وليس عندهم العمل.

هوذا الرجل الذي كانت سياسته في العراق من العوامل الاولى في ثورة سنة ١٩٢٠. ولا اظنه اذا ذُكرت مرة يحس بشيء من الندم، لانه كان ولا يزال يعتقد ان القوة في الحكم بالرغم عن التعنيف خير من اللين والفوضى. اما الرجل الذي جاء في تشرين الاول من هذه السنة ليطفىء ما تبقى تحت الرماد من جمرات الثورة، ويؤسس حكومة وطنية لاهل العراق «وفقاً لرغائب جلالة الملك» فهو نقيض السر آرنلد على خط مستقيم.

السر برسي كوكس [1] رجل طويل القامة، نحيل الجسم، بيضاوي

(١) دخل السر برسي كوكس في سلك الحكومة الهندية سنة ١٨٩٠. وعين

شكل الوجه ، دقيق الانف والشفة ، ابيض الاديم ، ازرق العين . هو انكليزي لا غش فيه . ظاهره ، وهو في سكون ، ينبيء عن نفس رائقة ولكنها ليست بشفافة . واذا كان من اضطراب هناك فقلما يبدو للنظر . في لطفه ما يدفيء ولا يشع ، وفي صراحته شيء يشير غالباً الى التعمد . هو من السياسيين الذين يحتفظون بسرهم ، وان كان لا يهم ، كأنه رأس مالهم في الحياة . واذا كشف عن زاوية منه فبعد ان تكون الحوادث قد كشفت عنه الستار كله .

ان سكوت السر برسي هو غالباً افصح من نطقه . وان عمله السياسي ، وان وقف فيه احياناً عند حد الغموض او العجز ، لا يخلو من الاخلاص للعراقيين وللعرب . فاذا حصرت النظر في سياسته العربية ارى ان اكبر فضله واظهر حسناته هو هذا الاخلاص ، ولو ظهر في بعض الاحايين في مظهر مائع او في مظهر مؤلم . فقد قضى مدة من حياته قريباً من العرب ولا يزال يحبهم ويعجب بمواهبهم الراقدة ، ويود ان تكون المنافع في العلائق الانكليزية العربية مشتركاً فيها على السواء بين الامتين .

كنت اتحدث وأحد رجال السياسة المعتدلين ، غير العرب ، وكان

تابع شرح صفحة ٣٤٢

بعد ثلاث سنين نائب قنصل زيلا في بلاد الصومال ، وانتقل في السنة التالية الى بربره ، ثم عين سنة ١٨٩٩ قنصلاً في مسقط ، ثم قنصلاً عاماً في ابي شهر . وفي سنة ١٩٠٩ اسند اليه منصب المندوب السامي في خليج العجم . وعندما شبت نار الحرب العظمى انتدب لان يكون رئيس الحكام السياسيين لفرقة D من الحملة الهندية لفتح العراق . ثم ذهب بعد الحرب الى بلاد ايران بصفة وكيل للوزير البريطاني في طهران ، وعاد منها مندوباً سامياً لحكومة بريطانيا في العراق .

السر برسي ونفط العراق موضوعنا فقال جليسي : ان في سياسته كثيراً من الزيت . هي استعارة غربية علمية ، وفيها خلا الاشارة الى زيت العراق مغزى لطيف . فالآلة الميكانيكية اذا كثر زيتها يخف صوتها وتنعم في احتكاك اجزائها . ولكنها تقف احياناً من الاحتقان في مفاصلها فيعتريها الخلل . وكثيراً ما وقفت الآلة السياسية في دار الانتداب ، وكان رئيس المهندسين ، بل رئيستهم المس بـــل ، تذكر في البلاغات بعض اسباب الخلل ، ولا تشير مرة الى كثرة الزيت والاحتقان .

مهما قيل في السر برسي فان وجوده في العراق ، في ما يعد من اهم ازمنة العراق السياسية بعد الحرب ، كان خير ضمين لكرامة انكلترا ومصلحتها ، وخير صلة بينها وبين هذا القطر الناهض من الاقطـار العربية . فقـــد حدث في عهده من الحوادث مـــا ستكون بهمة العراقيين اول صفحة مجيدة في تاريخ العراق الجديد .

عند وصول السر برسي في تشرين الاول سنة ١٩٢٠ انتهى الحكم العسكري رسمياً . ولكن شراذم من الثورة كانت لا تزال خارجة في اماكن مختلفة فصوب المندوب السامي باكورة اعماله اليها . فسلمت كربلاء ، وهي قطب الفتنة ، في ١٣ تشرين الاول ثم أنجدت الحامية في الكوفة ، فسلمت على اثر ذلك النجف ، واذعنت عشائر الشاميـة والديوانية لاوامر الحكومة ، فكان عدد ما جمع من السلاح في هذه النواحي خمساً وستين الف بندقية .

اما في لواء ديالى ، حيث كانت الثورة في اشد حالها ، فقد استمر الأضطراب وما تخلله من الحوادث المؤلمة الى اواخر سنة ١٩٢١ عندما عقدت المعاهدة بين الحكومة ورؤساء العشائر هناك . وظل في الشمال

في نواحي الموصل نفوذ الاتراك ينخر كالسوس في عظم السيادة العربية الانكليزية .

عندما باشر المندوب السامي اعماله السلمية اصدر بلاغاً الى العشائر خصوصاً والى اهل العراق عموماً يعلمهم فيه بانه انتدب ليساعد في تحقيق اماني الامة بواسطة زعمائها ، وليؤسس بمؤازرتهم حكومة وطنية . على ان ذلك يستحيل قبل ان يستتب في البلاد الامن والنظام. ولما توفقت حكومة الانتداب الى ايجاد شيء من ذلك اصدر بلاغاً آخر يعلم الامة بتأسيس حكومة موقتة الى ان يجتمع المجلس النيابي العام في ١٧ حزيران من سنة ١٩٢١ ، وان هذه الحكومة الموقتة تتألف من مجلس وطني يحكم تحت مشارفة المندوب السامي في كل الامور ما عدا الخارجية والعسكرية .

ان اصدار مثل هذا البلاغ لمن ابسط الأمور واسهلها ، ولكن تأسيس حكومة موقتة ، تحوز ثقة البلاد وتكون مرنة بيد المندوب السامي ، هو من الأمور التي يكثر فيها العقد ولا تخلو من النفاثات .

لا ريب ان بيت النقيب . وعلى رأسه الشيخ الجليل السيد عبد الرحمن الجيلاني ، هو مسموع الكلمة ، محترم الجانب في بغداد بل في العراق . ولكنه في السياسة ، كما هو في الدين ، يؤثر التقاليد على البدع ، ولا يرفع على الاعتدال حسنة من حسنات الوطنية . وقد تتغلب في اعتداله المحافظة التي يعقم عندها الرأي وتتقلص عوامل التجدد . الا ان ذلك لا يهم النفاثات في العقد اللواتي تمثلهن المس بل° .

— ان فضيلة النقيب صديقنا ، صديق انكلترا ، وهو ثابت في صداقته . وان له نفوذاً سياسياً مقروناً بنفوذ ديني لا يضاهيه نفوذ في البلاد . اذن هو صديق الامة وصديق الانكليز — هو الزعيم . سأعود

الى فضيلة النقيب ومجلسه وسياسته في فصل آخر .

قبل متردداً رئاسة المجلس الوطني الذي كان من اعضائه الاخصائي المالي الشهير في العراق ساسون افندي حزقيل ، والسياسي الداهية السيد طالب النقيب ، نقيب البصرة ، والعالم الفقيه مصطفى افندي الالوسي والوجيه الفاضل عبد اللطيف باشا المنديل . كلهم من اصحاب التجلة والكرامة ، وليس فيهم ممن حارب في الحرب العظمى وكان من الشبيبة الوطنية التي تنعكس في آمالها واقوالها ، وفي بعض اعمالها ، جمال النهضة العربية ، وحقيقتها العالية ، الا جعفر باشا العسكري .

اجتمع المجلس لاول مرة في ١٠ تشرين الثاني واستمر في الحكم الى يوم تتويج الامير فيصل ملكاً على العراق . وقد كان من اعماله العفو عن بعض المنفيين ممن اشتركوا في الثورة ، ومساعدة الضباط العرب الذين خدموا في الحكومة السورية الفيصلية ليرجعوا الى العراق : وتنظيم حكومة مدنية يديرها موظفون وطنيون تحل محل الحكومة العسكرية التي كان يديرها الوكلاء السياسيون الانكليز . ثم باشر المجلس درس انشاء جيش عراقي ودرس قانون الانتخابات التركي وتصحيحه ليطابق احوال البلاد الجديدة .

وكان قد تولى هذا الامر ناظر الداخلية طالب باشا النقيب . غير ان الانتخابات والمطامع الملكية قلما تلتئم خصوصاً اذا كان امر الاثنين منوطاً برجل واحد . بدأت الامة تطالب بتنفيذ قرار ١٧ حزيران الذي اصدرته الحكومة العسكرية واجازته الحكومة الوطنية الموقتة . بدأت تطالب بانتخاب المجلس النيابي العام .

وكان الامير فيصل قد سافر الى اوروبا ووصل الى انكلترا ، وكانت الحكومة الانكليزية تفكر في ملكية العراق وفي نكبة

الامير . اما في العراق فكان قد ولى بعض النـــاس وجوههم شطر الكعبة يستمدون من ظلها المبارك الوحي في تشييد ملكهم الجديـد . فشاع في البلاد امر الملك حسين واولاده ، وبعث بعض اولئك العراقيين يرغبون اليه بان ينفذ احدهم ليتبوأ العرش الجديد .

ازعج الخبر وزير الداخلية الذي فكر ملياً في الامر فرآه متشعبـاً كثير الاخطار . ان للشريف اربعة انجال وفي كل واحد منهم الخـير والبركة . ولكن الامة العراقية تأبى التفضيل ،وقد تسيء الأختيار ، فتنقسم على نفسها فيتزاحم ويتهالك الأنجال الاشراف في سبيل مصالحها ... وليس في مثل هذه الحال خير للعراق .

لذلك شرع السيد طالب يطوف في البلاد ليتم اصلاحاً خاصاً في قانون الانتخابات . كانت المادة الاولى فيه ، تلك الـــتي تولى بنفسه نشرها وتعميمها ، أن لا تنتخبوا شريفاً اجنبياً ملكاً عليكم . ويحكم . هوذا السيد طالب وهو مثل انجال الشريف من الاشراف .فهو يتكفل لكم بمن يملأ كرسي العرش ولا يكون التـاج على رأسه كبيراً او صغيراً . بيـــد ان المستر تشرشل ، وزير المستعمرات الانكليزية ، وهو يومئذ « طنب سارح » مثل السيد طالب كان يسعى في غـير هذا السبيل .

عاش الملك

ثلاثة يهتمون والتاج واحد – السيد طالب يخطب – المستر تشرشل يدبر – الامير فيصل ينتظر – مؤتمر القاهرة – رجوع السر برسي كوكس الى بغداد – السيد طالب يهدد دار الانتداب – الخواتين يدعونه للشاي – الجنود تحمله على بساط الريح ... المندوب السامي يصدر بلاغاً – الامير فيصل يزور والده بمكة – السفر الى العراق – الوصول الى البصرة – الاستفتاء والمبايعة – التتويج – يعيش ملك العراق – ملكان يتعاهدان – الامة والصحافة تهللان .

ثلاثة في هذه الحوادث التاريخية عظمت همومهم فبلغت الحد الفاصل بين النكبة والنعمة . ثلاثـــة يمالئون الشعب الذي اصبح وبيده التاج والصولجان يهبهما من يشاء ، ويحطمهما اذا شاء ... ثلاثة يهتمون والتاج واحد . اما المستر تشرشل فقد كان همه الاول ان يخفف الضرائب عن الشعب البريطاني ليحفظ السيادة له ولحزبه في الحكومـــة فيضمن لمليكه سلامة التاج وثاني الثلاثة الامير فيصل الذي فقد تاجه في سوريا وراح يطالب الحكومة التي اعتادت — وفي كل عادة شيء من اللذة — ان تضارب خارج بلادها بالتيجان . والثالث سيد من سادات البصرة ، فيه شيء من الاسد وشيء من الثعلب ، رأى الامة وبيدها تاج تبغي صاحبه فجاء يخبرها بان صاحبه النقيب سيد البلاد الاوحـــد . اما اذا احببتم ان ينوب عنه السيد طالب ، وهو نقيب ابن نقيب مثله ، فلا بأس . وراح يطوف البلاد كما جاء في الفصل السابق ليتحقق رغبة الامة .

وجاء المستر تشرشل الى فلسطين ثم أمّ القـــاهرة ليدرس الحـالة السياسية في الشرق الادنى فيدعم بشيء من الاصلاح سياسة الاحرار في الحكومة . هذا ظاهر الغرض من تلك السياحة ، ومن المؤتمر الذي

عقد في القاهرة . دعـــا المستر تشرشل رؤوس الحكومات الانكليزية في بعض الاقطار العربية للمفاوضة فجاء من العراق المندوب السامي يصحبه بعض المستشارين والمس بل ووزير المالية ساسون افندي وجعفر باشا وزير الدفاع .

وجاء الى القاهرة في ذاك الشهر ايضاً اي الشهر الثاني من سنة ١٩٢١ الامير فيصل وحاشيته — متنزهين . فصفا الجو في العراق للسيد طالب ثم اكفهر كما سيجيء الكلام . والسبب في ذلك ، مهما قيل في التقارير الرسمية ، انما هو مؤتمر القاهرة . — قد اجتمعنا ايها السادة لننظر في طريقة صالحة تمكننا من تخفيض القوات الانكليزية المسلحة في الشرق الادنى دون ان يلحق شيء من الضرر بالسيادة الانكليزية . ثم للنظر في تأسيس دائرة خصوصيـــة للشرق الادنى في وزارة المستعمرات لتوحيد السياسة والعمل . وبكلمة اخرى ، بكلمـة وجيزة صريحة ، يجب ان نخفض نفقات حكومات الانتداب لنرفع عن مناكب الشعب البريطاني اثقال الضرائب . واننـــا نرى ان تنظموا في العراق جيشاً من الوطنيين فنتمكن من سحب جنودنا من تلك البلاد ... قد اجتمعنا ايها السادة ... ملك العراق ؟ نعم . نعم ... وكان الامير فيصل وحاشيته قد اموا القاهرة كما قلت ترويحاً للنفس .

عاد وفد العراق الى بغـــداد فاصدر المندوب السامي بلاغاً في ١٢ نيسان قال فيه انما قرره مؤتمر القاهرة يجب ان يعرض على الحكومة بلندن قبل ان يعلن . وكان السيد طالب قـد امعن في التطواف والخطابة ، وتوسع في سياسة الانتخابات والتاج ، فازعـج فريقاً من الامة وخصوصاً فضيلة النقيب الذي كان يدرك من غوامض الامور ، وهو الصوفي الكامل ، ما تعجز دونـــه روحية طالب باشا وعقلية

امثاله . اغمض النقيب الاكبر عينيه ونظر الى ما وراء حجاب الغيب ، فرأى هناك وزيراً من كبار الوزراء وخاتوناً من كبيرات الخواتين ، دع النفاثات في العقد ، فسمع الاول يقول والثانية تترجم : لا ترغب حكومتي لعرش العراق بغير واحد من بيت الحسين بن علي .

ولكن السيد طالب لا يسمع ولا يرعوي . ففي مأدبة ادبها لبعض الصحافيين الانكليز ،وحضرها عدد من الوجهاء الوطنيين ورؤساء العشائر ، وقف بعد ان دارت الكؤوس خطيباً ، وكان في جهره عجيباً — ان في دار الانتداب من لا نحبهم لانهم يتدخلون في شؤون الامة التي لها الحق ،ولها وحدها، ان تؤمر ان تملّك عليها من تشاء. وقد صرحت حكومة الانتداب بانها ستحترم ارادة الشعب العراقي ونحن نحترمها اذا فعلت . أما اذا اخلفت فها هنا عليها — ونظر اذ ذاك الى رؤساء العشائر — عشرون الف بندقية .

كلمة شديدة صريحة ساقت الى جو السياسة الغيوم والضباب فقامت الخواتين تبددها . دعت اللادي كوكس السيد طالباً للشاي وكانت المس بل هناك تمثل على الدوام النفاثات في العقد، فسُحر النقيب ابن النقيب ، وخرج من القصر مسحوراً ، فاستقبله عند الباب بعض الجنود ، فدفعوه الى سيارة كانت طيارة . حملوه على بساط الريح دون ان يدري بذلك احد من الانس ، ولم يقفوا به حتى امسوا خارج العراق . ثم صدر منشور المندوب وفيه الاسباب التي حملته على نفي صاحب المعالي السيد طالب باشا النقيب .

وظل الأمير فيصل سائحاً في جو صفا اديمه وتلألأت من ورائه طلائع الغيب ، فوصل الى الحجاز في اوائل حزيران ، يوم القى المستر تشرشل خطاباً في مجلس النواب يختص بالعراق ، وركب الهجين من

جده الى مكة ليقوم هناك بالواجب النبوي . تباركت الاقدار التي تديرها سياسة بريطانيا العظمى . فقد أنست الابن غضب ابيه ثم استيقظت في صدر صاحب الجلالة الرحمة والرضوان ، فجاءت منه برقية تقول ان ابنه فيصلا قد سافر الى العراق .

وبعد عشرة ايام اشرقت شمس الأمير في خليج فارس فجاءت النقيب برقية ثانية تقول انه سيصل إلى البصرة في ٢٤ حزيران . وما ضل البخار ولا غوى . وصلت الباخرة في الوقت المضروب فاستقبل من تقل استقبالاً رسمياً جميلاً في البصرة بالرغم عما كان فيها من عوامل الريب والتردد بشأن من جاء يجلس على عرش العراق . بيد ان الامير في محضره وحديثه وخطبه هو اكبر حجة لنفسه على المترددين من الناس وقبل ان أم بغداد زار المشهد [١] والحضرة [٢] فاستمال اليه القلب الجعفري الخفي . ثم في ١١ تموز اجتمع مجلس الوزراء برئاسة النقيب وقرر ان يكون الامير فيصل ملك العراق بشرط ان تكون الحكومة دستورية ديمقراطية نيابية . فاضاف المندوب السامي انه بموجب تصريحات حكومة جلالة الملك بان يكون للامة العراقية حق انتخاب من تشاء ملكاً عليها ، فلا يعمل بهذا القرار قبل ان يثبته الشعب العراقي . وشرعت الحكومة في الاستفتاء او الانتخاب أو المبايعة ، فكانت النتيجة واحدة . ان انتخابات هذا الزمان الديمقراطية ، خصوصاً في الشرق ، لاضحوكة من اضاحيك السياسة . على انه بالرغم من مساعي الضباط الانكليز السياسيين الذين تولوا امر الانتخاب قد اشترط كثيرون من المنتخبين بان تكون حكومة الملك

---

(١) قبر الامام علي في النجف .

(٢) قبر الحسين في كربلاء .

حكومة مستقلة عن اية سيادة اجنبية كانت اي انهم رفضوا الانتداب .

وكانت حفلة التتويج في ٢٣ آب سنة ١٩٢١ ، فوقف السر برسي كوكس يعلن امام الجماهير المحتشدة ان الامة العراقيـة اجمعت بستة وتسعين من اصواتها على مبـــايعة الامير فيصل ، وان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تعترف به ملكاً على العراق . فالقى جلالة الملك خطاباً جاء فيه : ان اول عمل اقوم بـــه مباشرة الانتخابات وجمع المجلس التأسيسي .

وبعد انتهـــاء الحفلة قدم المندوب السامي للملك برقية من الملك جورج الخامس فيها الكلام المألوف في التهنئة ثم ما يلي : « وان المعاهدة التي ستعقد قريبـاً بيننا فتثبت التحالف الذي تحالفناه في ايام الحرب المظلمة ستمكني ولا ريب من القيام بواجباتي المقدسة لادخال العراق في عهد جديد من السلم والنجاح » فاجابه الملك فيصل بعد كلام الشكر المألوف بما يلي : « لا اشك بان المعاهدة التي ستعقد قريباً بيننا ستمكن عرى التحالف الذي قدسه في ساحة الحرب العظمى دم الانكليز والعرب وانها ستقام على اساس متين » .

اما الشعب والزعماء والصحافيون فلم يدركوا وهم في نوبة من الحماسة والابتهاج شديدة ، خطورة هاتين البرقيتين . لم يدركوا ان الملكين عقدا يومئذ عقدة استحال في السنة التالية حلها فكانت السبب في ما شوه الاحكام الاسمية ، الانتدابية من الخلل والاضطراب . غمس الصحافيون يومئذ اقلام الفصاحة في محابر البيان ، واستعاروا من البلاغة اجنحة طاروا بها في سماء الاماني الوطنية والاحلام .

— وفي هذا اليوم شخصت انظار الامة الى مليكها تستعيد ذكر المنصور والرشيد والمأمون . وفي هذا اليوم تستمد الامة من ماضي مجد

العباسيين نوراً تسير فيه الى اعالي مجدها الجديد. وفي هذا اليوم تؤسس حكومة عربية حرة دستورية نيابية ديمقراطية مستقلة كل الاستقلال. وفي هذا اليوم ـ سقط منذ سنة ملك سوريا، ليعيش اليوم ملك العراق.

بعد سنة اخرى، في عيد الجلوس الاول، رددت الصحافة آيات البلاغة الذهبية، وحلقت في سماء الامال العسجدية، فبرهنت على ضعف في ذاكرتها او في سمعها. في مثل هذا اليوم منـذ سنة وقف المندوب السامي يعلن للشعب باسم جلالة الملك استقلال العراق وانتخاب الامير فيصل ملكاً على العراق. وفي مثل هذا اليوم ابرق الملك جورج الخامس الى الملك فيصل يهنئه والشعب العراقي ويذكره بالمعاهدة. فلم يكن لا في كلام المندوب ولا في برقية الملك كلمة عن الاستقلال التام.

امر تساهلت به الحكومـــة قبل التتويج وامر تساهلت به الامة يوم التتويج وبعده، ها هنا رأس الخطل والخلل. فقد اشترط المبايعون في بيعتهم رفض الانتداب فلم يأبه لذلك دار الانتداب. هم المشترطون ونحن الحاكمون. وقد تعاهد المليكان على عقد معاهدة في القريب العاجل فلم تدرك ذلك الأمة، او انها ادركت ولم تكترث. دع الملوك يتعاهدون. امـا الحكم اليوم فللشعوب. هوذا الاساس الواهي في الملك الجديد. هوذا رأس الخطل والخلل.

المعاهدة

العجز في الحكومة عجزان – الضرائب – الامة حائرة – الانكليز قانطون – اعترافهم بالخطأ – معاهدة تثبت الاستقلال وتنفيه – لا صراحة ولا ثقة ولا يقين – الاستقلال مجاناً – لا حرية ولا اتحاد – الوزارة الجديدة – المعاهدة – بعض بنود النص الاول والنص الثاني حكومة اميركا تحتج – البند الحادي عشر ينقح اكراماً لها – خلاصة المعاهدة – توقيعها – المحتجون في بيت النقيب – سقوط الوزارة – وزارة السعدون – عبد اللطيف باشا المنديل – المعاهدة وملحقاتها في الوزارات التالية – المعاهدةفي المجلس التأسيسي – سياسة الضغط والارهاب – امضاء المعاهدة – ولا تزال الامة تشكو وتحتج .

باشرت الحكومة الجديدة اعمالها بما اشرت اليه من العجز المعنوي . هو عجز لان التصريح التام في مثل تلك الاحوال ، بل التحديد الأكيد الذي اقتضته تلك الحوادث الخطيرة ، كان مفقوداً . فلا الملك العربي قيّد وعده للملك الانكليزي بالشرط اللازم ، ولا الامة التي بايعت الملك اصرت على الحكومة في البداءة بقبول شرط الا « لا انتداب » . ولا حكومة الانتداب صرحت برفضها شرط الأمة في المبايعة . هذا هو العجز المعنوي الذي قلّ من سلم من نتائجه الخبيثة .

وقد كان في ميزانية الحكومة عجز مالي لا يقل عن المليون ليرة انكليزية فسُدد بقرار من مؤتمر القاهرة – أدخل في ميزانية حكومة انكلترا – تمهيداً للعهد العراقي الجديد . بيد ان ذلك القرار اوجب على الحكومة العراقية ان تخصص في ميزانيتها الجديدة ثلاثمئة وخمسين الف ليرة للجيش العراقي . فكان ذلك عجزاً آخر . لانه تعسر جمع

الضرائب من امة كانت ثائرة وظلت ناقمة معاندة . هما عجزان كانت الثورة السبب المباشر فيهما ، تلك الثورة التي اتلفت في الزرع والضرع مـــا اثر في الضرائب تأثيراً شديداً وفكت من عرى الامن والنظام ما اضعف الحكومة الى حد لم يكن لها فيها سيادة تحترم . على ان الامة في حبوط الثورة فقدت الثقة بنفسها وصارت في جرأتها ، في جسارتها ، اقرب الى التهويل منها الى العمل . وما يصح فيها من هذا القبيل يصح في حكومة الأنتداب وفي الموظفين الأنكليز عامة . الا ان طريقة هؤلاء ، وهم يظهرون من الضعف قوة ، كانت اضمن للستر والكرامة . قد يكون الفرق بين الاثنين فرقاً طبيعياً لا خلقياً وقد يكون غير ذلك . أمرهما أمر اثنين تصارعا وتغالبا وكانا في النهاية مغلوبين على السواء في ما اصابهما من الم ونهك وقنوط . بيد ان آلام الواحد كانت ظاهرة ، وآلام الآخر خفية .

ومع ذلك فقد ابت على الكاظم الخفاء . ما كلمت انكليزياً في تلك الأيام ، ايام العجز الأدبي والمالي ، الا وكان ، بالرغم عن التجلد والشدة والثبات المشهور هذا الشعب بها ، متألماً من الحالة حتى اليأس. — « عندنا من الموظفين من يظنون انفسهم اكبر من كراسيهم فلا يحسنون الجلوس فيها. وعندنا آخرون هم كالأوتاد المستديرة في الأثقاب المربعة متزعزعون متقلقلون ». وقال آخر ، « عساكر وضباط في وظائف ادارية ومركزهم الطبيعي إنما هو في الجيش » . وآخر — بارك الله بمن عرف خطأه واعترف به —: « حكومة لندن تربط ايدينا وحكومة العراق تزدرينا ... النية حسنة وان كانت الأغلاط كثيرة ... نحن في حاجة الى العراق والعراق في حاجة الينا . ولا خير لنا وللعراقيين بغير المصلحة المشتركة والآكرام المتبادل » .

على انهم وهم ينطقون بالحق ويعترفون باغلاطهم ، يرتكبون الخطأ الفادح في معاهدة تكفل الاستقلال للعراق وتنقضه في بعض موادها وقد يكون الحق في جانبهم في مـــا ينقض ، من الوجهة الماليـة في الاقـــل لا في مـا يثبت الاستقلال . ولكنهم لم يصرحوا بذلك . نعطيكم كذا وكذا ، فتعطونا كذا وكذا ، والاستقلال الحقيقي انما هو القيام بالعهود . لم يكن في العراق لا من المعتدلين ولا من المتطرفين من يقول هذا القول . طلبوا الاستقلال مجاناً . وهذا لا يكون . ولكن الانكليز سكتوا فظنُّـــن في سكوتهم القبول . ثم جاؤوا بالمعاهدة تتقاضاهم ثمن الاستقـــلال فرفض العراقيون الدفع وجاؤوا بالمعاهدة قبل ان يجتمع المجلس التأسيسي الموعود به في قرارات سابقة اثبتت رسمياً في حفلة التتويج .

ان المرء ليعجب من حكومة عاقلة راقية مثل حكومة انكلترا اذ تقدم على عمل في غير بلادها لا حكمة ولا سيـــاسة ولا عدل الا في عكسه . وهم يطلبون المعاهدة اولاً ،ثم يشترطون في القانون الاساسي ان لا يكون مخالفاً لموادها ، ثم يأذنون بانتخاب مجلس نيابي ليجيزها . والمثل الذي يعيب هذا المسلك مثل انكليزي . على ان العربة جرت الحصان في العراق ! فهـــل تستطيع ان تجره الى حيث تنتهي وظيفته المضحكة ؟

ثبت الانكليز في غلطهم وفازوا . فهـــل يثبت الفوز المبني على الغلط ؟ (١)

---

(١) وها قد مرت خمس سنوات على تلك المعاهـــدة ولا تزال الحكومتان البريطانية والعراقيـــة تتفاوضان في امرها . لا يزال فيها ما يجب اصلاحه او تعديله او الغاؤه . معاهدة ولدت قبل المجلس النيابي والدستور الاساسي ابويها ـ ولدت باعجوبة فهل تحيا باعجوبة يا ترى ؟

اعود حيث انعطفت بالقــارىء ، لاطلعه على القسم السوري من تاريخ جلالة الملك ، فاقف به ثانية عند حادثة القصر في تاريخ الحكومة العراقية الجديدة اعود به الى تلك الايام الــتي لم يكن في العراق لا حكومة تذكر ولا انتداب ، لاكمل قصة المعاهدة المشهورة . مــر العام الاول بعد التتويج وما رأى الناس فرقــاً كبيراً بين سياسة الحكومة الحاضرة وسياسة الحكومة الاحتلالية الغابرة . فلم تضع الامة ثقتها التامة بوزارة النقيب الثانية ولا وضعت الاحزاب المقاومة ، وعلى رأسها الشيعة ، ثقتها التامة بجلالة الملك .

وكانت دار الانتداب بين فريق يعرج ووجهته النقيب ، وفريق آخر مثله ووجهته القصر ، يحاول الانتفاع بالحالتين ليصل الى الغايــة المنشودة . والغاية عقد المعاهدة . الا ان هذا التمهيد في المعاهدة يا فخامة المندوب ، وفيه نص صريح على الانتداب ، لا تقبل به الامة ولا يمكننا من العمل واياكم بما فيه خير البلدين . اجل ، قد كان حتى النقيب من المحتجين .

استمرت المفاوضات بين بغداد ولندن بخصوص ذلك التمهيد وبعض بنود في المعاهدة هي من بابه . وقد كانت دار الانتداب شديدة اللهجة على الوزارة الخارجية . ـــ قد خفضنا كثيراً نفقات الحكومة يا مستر تشرشل ، اسقطنا اكثر من ثلثيها : فاصبحنا ولا قــــوة لدينا تنفذ اوامر الحكومة وتجمع الضرائب . وكل تخفيض في النفقات في بلدان الشرق ، كما لا يخفى على فخامتكم ، يــلازمه او يتبعــــه ضعف في الحكومة . ومع ذلك مشينا واياكم بما تأمرون ـــ والحرب سهلة في الخريطة يا مستر تشرشل . انتم تبغون عقد المعاهدة ولا تراعون واقعة الحال . أليس من الممكن ان تتنازلوا عن الانتداب

— او عن النص عليه في الاقل ؟

سمع المستر تشرشل شكوى دار الانتداب ببغـداد ، فنُقحت المعاهدة ، وألغي ذلك التمهيد المشؤوم ، وأضيف الى المـادة الاولى مادة احتياطية بخصوص السيادة الوطنية ، وأبدل في المـــادة الثالثة الشرط الايجابي بشرط سلبي ، ثم في المادة الحادية عشرة اضيفت جملة احتياطية طويلة لا اكراماً للعراقيين ولا للانكليز ، بـل ارضاءً لحكومة ولايات اميركا المتحدة (١) .

اما المعاهدة نفسها فيمكن تلخيصها بعشرين كلمة . وهي ان حكومة انكلترا تمد الحكومة العراقية بالمـال والسلاح وبالمساعدات الادارية والتقنية بشرط ان تقبل نصائحها واوامرها في كل ما يتعلق

---

(١) المادة ١١ في النص الثاني النهائي : يجب ان لا يكون ميزة ما في العراق للرعايا البريطانيين أو لغيرهم من رعايا الدول الاجنبية الاخرى على رعاية اية دولة هي عضو في جمعية الامم ، او رعاية اية دولة معاهد وافق جلالة ملك بريطانيا بموجب معاهدة على أن يضمن لها الحقوق نفسها التي قد تتمتع بها فيما لو كانت من ضمن اعضاء جمعية الأمم في الامور المتعلقة بالضرائب والتجارة الخ .

ولهذه الجملة الاحتياطية التي اضيفت ايضاً الى المادة ١٤ التي تختص بالاثار القديمة قصـة لا تخلو من متعـة : من المعـلوم ان اميركا لم تدخـل في جمعيـــة الامم . ومن المعلوم كذلك انها كانت قد اتفقت مـــع انكلترا وفرنسا على استثمار زيت العراق . على ان هناك ما لا يعلمه غير بعض الاخصائيين والسياسيين وهو ان شركة اميركية ارسلت مهندسين من قبلها في شتاء ١٩٢٢ الى العراق ليتحروا الحقائق العلمية والاقتصادية بخصوص الزيت فلم يمكنهم المندوب السامي، من ذلك . وكانت المعاهـــدة يومئذ همه الاكبر . فاتصل الخبر بحكومة وشنطن التي احتجت على عمل المندوب السامي ، وبعد المفاوضات بينها وبين حكومة لندن ادخلت الجملة الاحتياطية على البندين الحادي عشر والرابع عشر من المعاهدة . فيظهر ان اميركا لا يهمها من العراق الا ما كان مدفوناً في اراضيه من الاثار ، ومن منابع الدولار

بذلك . في هذا شيء من الاستقلال ، فيه يستقل العراق عن دول الارض كلها سوى دولة بريطانيا العظمى . ولكي يدرك القارىء ما هو اعتمادها على هذه الدولة اتوسع بما تقدم من خلاصة المعاهدة فاستعرض ما يلي من اهم بنودها .

ان جلالة ملك بريطانيا العظمى يتعهد بان يقدم ما يقتضي من المشورة والمساعدة الى دولة العراق (المادة الاولى) وان يقدم من الامداد والمساعدات الى قوات العراق المسلحة ما يتفق عليه من وقت الى آخر (المادة السابعة) وان يسعى بادخال العراق في عضوية جمعية الامم باقرب ما يمكن (المادة السادسة) .

ويتعهد جلالة ملك العراق في مقابلة ذلك بان لا يعين في الحكومة العراقية من الموظفين الاجانب غير الانكليز (المادة الثانية) وان يقبل المشورة التي يقدمها ملك بريطانيا بواسطة المندوب السامي في جميع الشؤون المهمة وخصوصاً الشؤون المالية (المادة الرابعة) وكذلك الخطة التي يشير بها في الامور العدلية لتأمين مصالح الاجانب (المادة التاسعة) وان ينظم قانوناً اساسياً لا يخالف في مواده هذه المعاهدة ليعرض على المجلس التأسيسي للتصديق .

وقد اتفق المتعاهدان بان تضمن المساواة بين رعايا بريطانيا العظمى ورعايا الدول الداخلة في جمعية الامم في الامور المتعلقة بالضرائب او التجارة أو الملاحة او ممارسة الصنائع والمهن الخ (المادة الحادية عشرة) وان تكون مدة المعاهدة عشرين سنة .

في اليوم العاشر من تشرين الاول سنة ١٩٢٢ م و ١٩ صفر ١٣٤١هـ اجتمع في باب السيد عبد الرحمن النقيب اشراف بغداد ورئيس الوزارة في الحكومة العراقية جمهور من الناس صاخبين مشاغبين وهم يبغون

مخاطبة الوزير، فحمل احد الحجاب خبرهم الى سيده فاذن لهم بالدخول. كان قد وقع المعاهدة صباح ذاك اليوم فدخلوا يحتجون عليها وعليه. فسألهم قائلًا: باسم من تحتجون؟ فاجابوا باسم البلاد؟ فاحتدم فضيلته غيظاً وانتهرهم قائلاً: ومن انتم لتحتجوا باسم البلاد؟ عودوا الى بيوتكم واشغالكم. انا صاحب البلاد فخرجوا احتراماً ساكتين، وما كانوا مقتنعين ولا راضين.

ثم نشرت الجرائد صورة المعاهدة مصدرة ببلاغ من صاحب الجلالة إلى الشعب العراقي يقول فيه ان قد اعترض سير المفاوضات مصاعب جمة «ولكننا تمكنا من التغلب عليها والوصول إلى هذا الحل المرضي ... وهي خطوة واسعة في سبيل تحقيق امانينا الوطنية ... فقد اعترفت بريطانيا العظمى باستقلالنا السياسي واحترام سيادتنا القومية» ثم يدعو الناس لمؤازرته ولاتخاذ الخطوة الثانية وهي مباشرة انتخاب المجلس التأسيسي ووضع القانون الاساسي اللامة. فقرأ الناس البلاغ الملكي والمعاهدة وما كانوا مقتنعين ولا راضين. وقرأها اشياع الحكومة ساكتين احتراماً وآسفين.

بعد شهر من يوم التوقيع سقطت وزارة النقيب. كنت يومئذ في العقير وكان عبد اللطيف باشا المنديل [1] عندي في الخيمة عندما

---

(١) عبد اللطيف بن ابراهيم المنديل هو من عشيره الدواسر ويمت بنسبه الى عمر بن الخطاب. ظعن احد اجداده الى جلاجل في نجد ومنها منذ تسعين سنة جاء والد عبد اللطيف باشا العراق فأسس محلا تجاريا في البصرة وآخر بعدئذ في بمباي، وآخر في بغداد. وقد سلك عبد اللطيف باشا مسلك والده في التجارة والزراعة فزاد ثروته واملاكه. وهو حر الكلمة سديد الرأي، يخلص الود لال سعود وخصوصاً للسلطان عبد العزيز، ويخلص العمل لوطنه الثاني العراق. فقد انتخب في زمن الحرب عضواً في مجلس الاشراف في البصرة، ثم اسندت اليه وزارة التجاره في الحكومة العراقية الموقتة، وبعد التتويج تشكلت الوزارة برئاسة النقيب ايضاً واسندت اليه

استلم برقية من عبد المحسن بك السعدون في بغداد يخبره فيها بان جلالة الملك قد عهد اليه بتأليف وزارة جديدة ويسأله ان يكون وزير الاوقاف فيهـــا . وفي ذلـك اليوم نفسه علمت من السر برسي كوكس السبب في سقـــوط الوزارة فحزنت لما علمت . اجتمعت الصداقة بالسياسة مرة في قديم الزمان فقالت الواحدة للاخرى : وكان سلامه عليّ وداعاً .

وبعد سنة وثلاثة اشهر من يوم التوقيع اجتمع المجلس التأسيسي في بغداد وكانت الامة لا تزال مقاومة لتلك المعاهدة، مناوئة لانصارها القليلين ، فرفض المجلس انفاذها . ثم انتقلت الوزارة الانكليزية الى حزب العمال ولم تتغير في سياستها الخارجية . فاصدر المستر مكدونلد بلاغاً رسمياً اعلن عزمه على احـــالة المعاهدة الى عصبة الامم اذا لم تُقبل بحذافيرهـــا في ١١ حزيران . وكانت معضلة الموصل يومئذ قيد البحث بين مندوبي انكلترا وتركيا في الاستانة فاتخذتها الحكومـة الانكليزية سلاحاً آخر تروّع به الامة العراقية : أتبغي الزيادة من هذه القصة المحزنة ؟

دُعي المجلس التاسيسي لعقد جلسة فوق العادة بعد ان ارفض في ١١ حزيران دون ان يبرم المعاهدة ، فلم يحضر الجلسة غير تسعة وستين عضواً من مئة وعشرة اعضاء . فاقترعوا على المعـــاهدة فكان معها

تابع شرح صفحة ٣٦٠

وزارة التجارة مرة ثانية . ثم جاء الى الحسا يزور السلطان عبد العزيز الذي شاء ان يفاوضه في بعض الشؤون . وعندما كنا في العقير جاءه من عبد المحسن بك السعدون برقية يسأله فيها ان يرأس وزارة الاوقاف فقبل عبد اللطيف باشا واستمر في هذا المنصب سنة ، ثم انتخب في ٢٥ شباط سنة ١٩٢٤ عضواً عن البصرة المجلس التأسيسي .

ستة وثلاثون وضدها اربعة وعشرون . امــا التسعة الباقون فرفضوا الاشتراك في الاقتراع .

هذه هي نتيجة ذاك المسلك السياسي الذي رأينا العربة فيه تجر الحصان . بل هذي هي النتيجة لتلك الخطة السياسية التي يبدأ صاحبها بالسقف قبل ان يهتم باساس البيت . فقد قبلت دولة بريطانيا العظمى معاهدة ابرمتها اقليــة صغيرة في المجلس التأسيسي العراقي ، ولا شرف في قبولها لانه يخالف تلك القاعدة الاساسية للحكم الدستوري المحترم في بلادها .

اصحاب المعالي

سكرتير الوزارة يخلصني من فندق بغداد – خليلي ومصيفي – السيد عبد الرحمن النقيب – تاريخ العالم منذ سقوط حواء الى سقوط الاتراك - اهل العراق – المشانق والكرسي الكهربائي – « لسنا بسياسيين» قصة الفيلسوف واللص – الاميركي العالم بكل شيء – اغراس النخل والزراعة – اولاد النقيب الشيوخ والصبيان – وفد من الصبيان – ارائهم الثورية – اقيم في بيت القداسة والطهر – الولي عيدووس – مولانا عبد القادر الجيلاني – مائدة سيدي النقيب – المجتهدون والوطنيون – الفرق في حب الذات عند الانكليز وعند سواهم .

النادي العراقي – الطاولة الخضراء – اخصائي في لعبة ال « بريدج» – عربي لا غش فيه – السكوت العزوم – ترجمة عبد المحسن بك السعدون – وزارته واعمالها – نفي زعماء الشيعة – مطالبهم – رسالة من معالي الوزير .

الوزارة الجعفرية – جعفر باشا لا يكذب اسمه – الجيش العراقي – وزير لا يهمه المنطق – درهم جدارة خير من قنطار مقامات – الوزير التلميذ – الحية والعصفور – رأيه في الانكليز .

الوزير الكئيب – شجا في حلق الانكليز – فيلسوف في الاحزان – على مائدة المس بل – لجنة تدقيق المعاهدة – مطالبها – الثابت في الوزارات العراقية – ترجمة ساسون افندي .

الوزيرة الوحيدة جرترود بل – رأي احدى النساء بها – رأي احد المستشارين – انكليزية عربية – القاعدة والقضيب – قال العرب وعمتهم .

قد كان من حظي في بغداد اني لم اضطر ان اقيم دائماً في فندق من فنادقها الفخمة، فأروض الجسم في احدى غرفها منذ اليوم للقبر، وآكل تحت الارض في السراذيب من المآكل التي لا يعرف لها تاريخ ، ولا قومية . والفضل في خلاصي لشاب اديب كريم ، له جذور وفروع في تاريخ الدين والدنيا تحير علماء الانساب والاثار ، ولا تقيه مع ذلك

من النار . فهو فارسي الاصل ، انكليزي التربية ، شيعي المذهب ، درويني العقيدة ، نبوي السليلة قديماً وحديثاً . اقول قديماً وحديثاً ، واليك البيان : هو في الاول سيد من السادة الذين يتصل نسبهم عن طريق الحسين بفاطمة الزهراء ، وهو في الاخر غصن صغير يابس من شجرة النبوءة الحديثة التي زرعها « الباب » في بلاد العجم في القرن الماضي ، ثم نقلها « البهاء » الى حيفا ، فاستثمرها « عبد البهاء » خال صديقي ونقل من ثمارها الى اوروبا واميركا . وهو مع ذلك وفوق ذلك استاذ في علم الاقتصاد .

عرفته يوم وصولي الى العاصمة . جاء به الكسباني امين يقول : هذا الحسين بن الحسين وعنده من كل فن خبر . كان من الواجب ان يسموه فنوناً ولكنهم اساؤوا اختيار الجمع فسموه افنان ، — حسين افنان ، سكرتير مجلس الوزراء والصلة المرنة المفيدة بين الوزارة والعرش ودار الانتداب. فقلت : سبحان الله الذي جمع مساوىء الثلاثة في شخص واحد . فقال الكسباني: وقد اضاف اليها مساوىء اخرى ، فضحك افنان فانارت الضحكة وجهه القمري — المستدير كالقمر — وعندما سمعني اشكو من الفندق فخامة فيه ، وفي مآكله واغانيه ، قال : غداً ان شاء الله نريحك منها وكان قد استأجر بيتاً له والكسباني فأعد لي فيه غرفة لا تهجرها الشمس في النهار ، ولا الهواء ولا الغبار . هي بغداد . وما فيها غير فصلين في السنة فصل الغبار وفصل الوحل . وصلت اليها في الفصل الاول ، ثم سافرت الى نجد وعدت اليها في الفصل الثاني كي لا يفوتني شيء من محاسنها . . .

رفيقي خليلي ، ولا اخاطبكما شعراً . قد تحسنان وقد تسيئان في وظيفتيكما ، قد تكونان في ما تكتبان وتترجمان ، وتسعيان

وتجربزان ، خيراً للانتداب يومـاً وشراً على الامة ، او خيراً صافياً للاثنين في بعض الاحايين . اما في صفتكما البرمكية في محلة الاشراف ، في ذاك البيت الذي كان مفتوحاً دائماً ، ليس لي فقط بل للشمس والغبار والضوضاء ، فكنا نعتصم من الحر بسردابه في النهار ، كما تذكران ، وبسطحه في الليل ، فلم يكن فيكما وانتما الرفيقان المضيفان غير الخير الصافي على الدوام .

عبد الرحمن النقيب [1]

قال الحسين يوم اجتماعي به في الفندق : قد قابلت صاحب الجلالة سيد الكسباني فيجب ان تقابل صاحب الفضيلة والمعالي سيدي. فقلت : اني في الحالين طائع وسرت واياه الى بيت جميـــل على شاطىء دجلة كان في تلك الايام قطب السياسة والسياسيين كما هـو قطب الاتقياء والمتعبدين — والمزارعين . فان سيدي النقيب يهتم بالارض اهتمامـــه بالسماء .

وكان اول اجتماعي به في القاعة التي تجتمع فيها الوزارة والتي وقعت فيها بعدئذ المعاهدة . هوذا شيخ في العقد الثامن من العمر ، يحمل في قلبه افراح الثمانين واتراحها هادىء البـــال ، ويحمل في رأسه فلسفة روحية سياسية زراعية خالية من غش الاوهام والخيال ، ويحمل في مفاصله داء اقعده فالجأه الى العصا يتوكأ عليها من عقر داره الى بهـــو الاستقبال . وكان يومئذ يحمل فوق ذلك كله الحمل الاثقل والاخشن ، حمل المعاهدة البريطانية العراقية وسياستي العرش ودار الانتداب .

---

(١) توفي شتاء عام ١٩٢٧ .

رجل عدل القامة ، وافر موضع النطـــاق ، براق العين ، ناصع الجبين ، قصير اللحية ، بسام المحيا . يلبس الانابيز البيضاء وهي دائماً كالثلج ، ويجلس على الديوان ، والى يمينه عصاه وبالقرب منه على قيد ذراعين الزائر الجديد ، وقبالته على ديوان آخر شيوخ مثله اجـلاء . ولكنهم دونه سناً . هم اولاده . وكان قد اخبرني صديقي بان فضيلة النقيب ، على علمه وحصافته وروحانيته ، يتقزز من لمس ايدي الناس . فلما دخلت وقفت امامه محنيّ الرأس مسلماً وكان قد وقف لاستقبالي ومدّ يده مصافحاً ، فدهش الحضور كما علمت بعدئـــذ . ولكنني زرته وانا في بغداد مراراً ، وشرفني مراراً ، بان دعاني لمـــائدته ، فآكلني وصافحني دون ان يغسل بعد ذلك يديه . كأني به وهـو اكبر المقربين من سدة مولانا عبد القادر العلوية ، وحامل مفتـــاح حجرته القدسية ، نظر بعين الغيب الى ما وراء الحجب ، فرأى في هذا الرحالة رغبة في التصوف لا تزال طفـــلًا ، فاحب ان يغذيه بتعطفه وبقربه وبشيء من الكرامة في يده .

وكان اول مـــا حدثني به من مدهشات مجلسه انه قصّ عليّ في بضع دقائق قصة العالم منذ سقوط امنـــا حواء الى سقوط الاتراك في بغداد . ثم قـــال : وتاريخ الانسان يا افندي مثل تاريخ الامم — مقدمات لنتيجة واحدة هي السقوط . ونحن العرب خصوصاً العراقيين اوفر الامم حظاً من هذا القبيل . العراقيون يا افندي انت تذكر ما قاله الحجاج بن يوسف . فقلت : ولكننا في زمان غير زمان الحجاج . فقال على الفور : اما اهل العراق فلا يتغيرون . خلصناهم من الاتراك ، ومن العجم ، ومن الاحتلال العسكري ، ونحن نسعى الآن في خلاصهـــم من الفوضى وهم لا يريدون ، ولا يرضون ، ودائماً ناقمون . هـــل

رأيت في كل سياحتك يا افندي شعباً يحسن صنع الحبال والمشانق ولا يجد من يجربها فيه غير نفسه ؟ وهل يستخدمون المشنقة في اعدام المجرمين في اميركا ؟

قلت : عندهم الكرسي الكهربائي. فسألني ان اصفه ثم قال:خوش طريقة . يلزمنا عدد من تلك الكراسي في العراق . فقلت . العفو اذا خالفت سيدي النقيب . فان امة توكل امرها الى مثله لتجد في اساليب السياسة وطرق الحكمة حلاً مرضيا لمشاكلها كلها .

فقال وهو يمكّن النفي بيديه : لا ، لا ، لسنا بسياسيين . ما عندنا من علم السياسة الا اليسير . وهذا اليسير التقطناه في اختلاطنا برجال السياسة الحقيقيين . مثلنا مثل اللص والفيلسوف . جاء اللص في ليلة مقمرة الى بيت الفيلسوف يبغي السرقة ، فدخله من النافذة وكان الفيلسوف جالساً في الزاوية يشكر الله الذي انار بيته بنور القمر . فجال اللص في البيت وهمّ بالخروج وهو خائب الامل . فخاطبه الفيلسوف قائلاً : اذا كنت انا صاحب البيت لا اجد فيه شيئاً في ضوء الشمس فهل تؤمل انت الغريب ان تجد في ضوء القمر شيئاً فيه ؟

فقلت : ولكني لم ادخل البيت من النافذة يا مولاي . فضحك حتى استلقى وهو ينظر الى انجاله تارة وطوراً اليّ والى افنان ويقول : غلبني . غلبني .

ثم اخبرني قصة تفصح عما فيه من حب النكتة ومن البراعة في التهكم قال : زارنا الاسبوع الماضي رجل اميركي مندوب احد الجرائد هناك . وجلس هناك – اشار الى الديوان قبالته – واخذ يتكلم – خوش كلام – وهو يسألنا سؤالات في السياسة ، وفي الامتيازات ،

وفي النفط ، ويجيب عليها بنفسه ، ونحن مثل الفيلسوف الذي قصصت عليك قصته جالسون في زاوية السكوت نشكر الله الذي انار بيتنا السياسي بنور القمر . ولكننا استأنسنا بهذا الاميركي — جاء مثلكم في النهار ولم يدخل من النافذة . ولكن لسانه مثل سيف ذي الفقار — خوش لسان — هل كل الاميركيين مثله حذقاً وعلماً ؟ عندما قام يودع شكرناه على زيارته وعلى ما استفدنا من حديثه . وخطر لنا يومئذ ان نسأله عن اغراس النخل التي اخذت من هذه البلاد الى اميركا ، وزرعت هناك . ولكنه لم يفسح للسؤال مجالاً فهل لك علم يا افندي بتلك الاغراس ؟ هل نجحت في اميركا ؟

فاجبته قائلاً : اذا اذنتم باستعارة استعارتكم اقول ان بيتي الزراعي مثل بيت الفيلسوف الذي وصفتم .

فضحك وقال : وانا مثلكم دخلت من الباب لا من النافذة . ثم نظر الى انجاله وهم جالسون امامه متكتفين يبتسمون ولا يضحكون فقال : اراني مع الافندي مغلوباً — مغلوباً اليوم . يجب ان يزورنا مرة اخرى . فقلت : هو احب ما أُحب في هذا البلد ، ثم كملت جملتي السابقة : اما البيت فلكم كل مـــا فيه . اذكر اني قرأت مرة ان وزارة الزراعة في وشنطن استجلبت من البصرة اغراساً من النخل وغرستها في الولايات الجنوبية .

— اذن علمك وعلمنا واحد .

— في هذه المسألة فقط .

— بيتنا بيت الفيلسوف انتم تسوحون طالبين العلم ونحن نأخذ علومنا من الكتب وممن نجتمع به مثل فضلكم .

فاعتذرت وشكرت . وكنت قد نظرت الى افنان فاعطاني

الاشارة فقمت اودع . فنهض فضيلته ومد يده ثانية يصافحني .

ان للسيد عبد الرحمن النقيب الكيلاني ، سليل مولانا عبد القادر قدس الله سره ، طائفة من السالكين المتعبدين منتشرة في اقطار الشرق كله . وله في بيته جيلان من الانجال ، الجيل الاول كان جالساً معنا وهم ثلاثة تتراوح سنهم بين الخمسة والخمسين والستين يحضرون مجلس والدهم فلا يتكلمون ، اذا كان عنده زائر ، الا اذا سئلوا ولا يضحكون ، مهما كانت النكتة ظريفة ، ضحكة عالية . اما الجيل الثاني وعدده ستة او سبعة صبيان فمن هذا الزمان حقيقة ومجازاً . لان بينه وبين الاول فترة مقدارها نحو اربعين سنة . والسبب في ذلك سرّ احترمناه .

زارني ذات يوم كبيرهم ، وهو لا يتجاوز السابعة عشرة ، فلم يكن مثل الصحفي الاميركي الذي زار فضيلة ابيه . سألني ان اقول له ما الفرق بين الانتداب والاحتلال . فاجبته فقال : ولكن البريطانيين يعترفون باستقلال العراق ولا يخرجون منه . وجاءني ثانية ومعه بضعة فتيان من اقاربه ورفاقه في المدرسة يبغون السلام والتعرف ثم الاحتجاج على الانكليز . فاتخذت في مقابلتهم الخطة التي اتخذها النقيب في زيارتي له اي اني سبقتهم الى السؤالات فكانوا في اجوبتهم مدهشين .

— واذا كانت اللغة الانكليزية لغة الحكومة المحتلة أفــلا تتعلمونها ؟ فاجاب احدهم : اذا كانوا ينوون الاقامة في بلادنا يجب ان يتعلموا لغتنا . وقال آخر : نتعلم لغتهم ويتعلمون لغتنا فيفهم اذ ذاك بعضنا بعضاً . وقال الثالث وهو صغيرهم : اذا كان لا خير في الاجانب فلا خير في لغتهم . فاجابه ابن النقيب قائلاً : اللغة شيء

والسياسة شيء آخر . فاذا تعلمنا لغتهم نتعلم طرقهم السياسية ونحاربهم بها . فرد عليه الصغير وهو يضرب الارض برجله انا لا استعير يد رفيقي لاضربك بها . انا اقاتلك بيدي .

ولكن السياسيين لا يضربون بايديهم .

– يضربون بارجلهم اذن ؟ لنا ارجل مثلهم . ألا لا يجهلن احد علينا . فنجهل فوق جهل الجاهلينا .

صفق له رفاقه ثم عادوا ، وقد وبخهم الاكبر ، الى التأدب . وكنت اخشى ان ينتقل هذا الوفد العراقي الوطني العجيب من الكلام الى الايدي فنهضت اكشف الساعة ، فكان الصغير اول من فهم الاشارة ، فنهضوا وسلموا مودعين .

كنت اقيم ببغداد بين وليين كريمين عرفت الواحد منهما لاول مرة في عدن . وهو هناك ولي البلد له مقام بقبة ، وعشيرة واحبّة ، وصندوق احسان يملأه كل شهر الاتقياء ، فيوزع المال على الفقراء . هو عَيدروس المدفون كما قيل في عدن ، وله في بغداد مقام وعباد . اما الولي الآخر الذي كان قربي ، بل كنت انا السعيد بقربه ، فهو اشهر من عيدروس واعظم ، اذا لم يكن كرامة وقداسة ، فسيادة ونفوذاً . كيف لا ومن شاطىء دجلة تشع شمسه شرقاً وغرباً فتنير ضفتي الكنج والنيل . كيف لا وهو مولانا عبد القادر الكيلاني المدفون رمزه المادي تحت تلك القباب اللازوردية في جامع يعد من افخر واجمل ما في بغداد . هناك شرقاً من سريري على السطح مطلع الانوار ، فكنت كل يوم عندما انهض صباحاً امتع نظري وروحي بمشهد الشروق على مسرح القداسة . فارى الشمس تكوّن من الغيوم البيضاء المتقطعة ، فوق قباب عبد القادر المتعددة ، ما يشبه قطعان الغنم

وهي تسرح في مروج من النرجس الذهبي العـــين ، والعصفر الذهبي الجبين . كأنها الزوار جاءت من العجم والهند لتستقي من الموارد القدسية ، وتحيا في المروج القادرية ... عبـد القادر الكيلاني ، من احسانك لا تنساني !

وما كان كرم الله وجهه لينساني وانا في بغداد . فكان يوحي الى فرع دوحته الاكبر السيد عبد الرحمن حباً موضوعه هذا الغريب في جوار الحبيب . وكنت انا المجذوب الى تلك الشخصية الفُسَيْفسائية ، كأنها كُوِّنت من الوان تلك المروج وتلك القبـــاب فوق ضريح عبد القادر . ليتأكد القارىء اني مجد في ما اقول . قد لا استحسن سياسة النقيب ، وقد لا تهمني الا في سبيـــل الادب مصادر القداسة حوله وفيه . ولكنني ممن يعجبون بمظاهر الحياة الفريدة ، اينما كانت ، وبشواردها المجيدة ، كيفما باتت ، ولا سيا اذا تمثلت في مثل هذا البشر السوي والشيخ الكريم .

ما رددت مرة دعوة للسيد لمجلس او لمائدة ، وكنت كلما دنوت من صميم ذاتيته ازداد اعجاباً بها وان بين النقيب ومائدته وجه شبه لطيف . في الاثنين غذاء كثير ، وفاكهة وابازير . في الاثنين فيض برمكي اصمعي ، فـــترتاح الى الاول العين والمعدة كما يلتذ بالثاني السمع والفؤاد .

وما عرفت اشجع منه ، على سنه ودائه ، اذا مـدت الايدي الى الزاد . على انه لا يشبه الاكول في انـه يهمل من يواكله . كنت اسمعه يتكلم ، واراه يتصرف بالالوان الواحد تلو الآخر ، وعينه على ضيوفه ، يشجعهم ويحرضهم على الهجوم .

ــ خوش حباري يا افندي امين . من صيد اليوم . لا تزهد بها ...

اذا كنت لا تتكلم يا حضرة الكسباني أفلا تأكل ؟.. أفنان لا يحتاج الى من يغريه بشيء .

وكان الكسباني امين على علمه وادبه وسياحاته في الارض — ومنه — يخجل كبنت السادسة عشرة اذا وجه اليه الكلام في مائدة النقيب او مائدة الملـــك . فيغص باللقمة ويزداد ارتباكاً . قليل الكلام ، قليل الاكل — في المواقف الرسمية . ولكني والحق يقـــال رأيته سكوتاً خجولاً حتى في حضرة السيدات .

بيد انه تغلب مرة على حيائه ونحن الى مائدة النقيب فـأكثر من اكل الزيتون — اكل على ما اذكر ثلاث حبـــات ، وهو يحن الى صحراء الشويفات . فجاءنا من مولانا في اليوم التالي جرة من الزيتون واخرى من الزيت . أتبغي اوضح من ذلك دليلاً على عجيب مواهب النقيب وتعددها ؟ ان القابلية للطعام كمثل غيرها من المحاسن البشرية . بل هي ، مثل الكرم والذكاء والتيقظ وحسن الحديث ، واحدة من المواهب التي يغدقها الله على من يشاء من عباده . وقد خص هذا الرجل الكبير بكثير منها كلها . اني لا انساه حياتي وهو يأكل كالشاب ، ويحدث كالشيخ ، ويراقب من طرف خفي كالمرأة فلا يفوته شيء مما له ومما عليه .

وما كنا في الحديث لندنو من السياسة الا نادراً . اذكر انه مر بالموضوع مرة فقال انه شديد الرغبة في العزلة . ولولا الحاح المندوب السامي وزملائه في بداءة الامر ، قبل التتويج وبعده ، لما كان يقبل ان يدير سياسة البلاد . ولكنه بعد ان وقـــع المعاهدة واحس ان الفكرة في القصر تزداد صلابة وظهوراً عليه ، وان دار الانتداب تميل تسللاً اليها ، ورأى فوق ذلك ان مقاومة المتطرفين تزداد شدة وعناداً ،

نزع بحكم رد الفعل الى التسلط والاحتفـــاظ بمنصبه . ولما صدر امر الحكومة بمباشرة الانتخابات للمجلس التأسيسي ، واصدر على اثره احد المجتهدين في النجف فتوى بان الانتخاب مخالف لقواعد الاسلام، رأيت فضيلة النقيب مضطرباً وسمعته غضوباً :

– في البلاد وطنيون كثيرون وكلهم رجال سياسة . ولكن ليس في رؤوسهم عيون تريهم مـا هم فيه . اين هم من البلاد ، واين البلاد منهم ؟ كانوا امس تحت اقدام الترك ، واليوم يبيعون البلاد الى الترك بفلس لينتقموا ممن يظنونهم اعداءهم . نحن اخذنا الامر على عاتقنا ، ولا نسأل التوفيق من غـــير الله ، ولا نتوكل الا عليه سبحانه وتعالى ... امـا اجتمعت بالوطنيـــين يا افندي وسمعتهم يتبجحون ؟ غداً تجتمع بكبارهم في كربلاء والنجف ... نصف هذا الاجتهاد جهل ، ونصفه عناد .

ذكرني كلامه وتغيظه بالكلمـــة الانكليزية المأثورة التي قالها الفيلسوف جونسون فترجمتها لفضيلته : ان حب الوطن ملجأ المنافقين الاخير [1] . فسر بها جداً .

– خوش كلام . خوش حكمة . الانكليز يا افندي امين احكم الناس بالرغم عن سيئاتهم كلها . هم ينـــافقون ولا شك ولكنهم لا يسمون نفاقهم اجتهاداً ولا يخلطون الدين بالسياسة . هم يحبون انفسهم ولا شك ولكن حب الذات يختلف عندهم عما هو عند سواهم . عند الالمان مثلاً حب الذات نيء بارد لا تقبله الناس . اما عند الانكليز فهو ناضج وفيه شيء من الابازير هي لبعض النـاس مثل السم . عند

(١) «Patriotism is the last refuge of the scoundrel.» - Samuel Johnson.

الانكليز العلم ، وعندهم المال ، وعندهم الحكمة . اما الوطنيون في البلاد فأي شيء عندهم ؟ هل هم يحبون البلاد اكثر منا وهي بلادنا قبل ان تكون بلادهم ؟ واكثرهم لا يزالون من الاجانب ... اعـــد المثل الانكليزي . حب الوطن آخر ملجأ للمنافقين — خوش كلام ، خوش حكمة .

ولكنه بعدئذ ، ولعله كان عالماً متجاهلاً بان السياسة ، بريطانية كانت او عراقية ، لا تعرف الثبات والوفاء ، فقد استنصره واستخدمه الانكليز الى ان تمت مقاصدهم فيه ، الى ان تم توقيع المعاهدة ، وبعد ذلك هجروه . وقبل الهجر ، عندما اراد السيادة والتغلب ، خذلوه .

عبد المحسن السعدون

في النادي العراقي روح اجتماعية وطنية صحيحة لانها مبنية على المساواة والاخاء ، ولانها فوق ذلك مختلطة اي انها عراقية بريطانية . ما رأيت الانكليز قبل اليوم ولا سمعت بهم يخالطون اجتماعياً من يحكمونهم او يساعدون في حكمهم من الشعوب . اما في العراق فالروح الجديدة يستبشر بهـا . قد تعرف في لعب الورق شيئاً من اسلوب خصمك في السياسة . والذي ادهشني من الموظفين والمستشارين البريطـانيين في العراق ان اكثرهم يحسنون التكلم بالعربية . كنت اجتمع بهم في النادي وارى بعضهم جالسين الى تلك الطاولة الخضراء يحاولون كسب روبية من زملائهم العرب .

اجل ان في النادي طاولة خضراء يجتمع اليها الوزراء بعد الظهر ، ساعة الشاي ، ليحافظوا على الموازنة النفسية بينها وبين تلك الطاولة الاخرى في السراي . فقـد كُتب لي ان ارى الوزراء يلعبون

ساعة بالورق ليبددوا هموم الاوراق الرسمية والمعاهـدات . وليس في ذلك ما يؤاخذون عليه، بل فيه برهان على ان للفلسفة العملية مقاماً عندهم محترماً .

ان الطاولة الخضراء في النادي العراقي مثل الحكومة العراقية قليلة الموارد محدودة الخراج ، ولها ان تفاخر غيرها بالكيفية لا بالكمية . هي برجالها تفتخر لا بالعابها واموالها . هاك على رأسها الاخصائي المالي ساسون افندي . من وكلت الامة اليه امر ماليتهـا ، يجيء كل يوم، وهـو اثبت في ذلك من قيم النادي ، ليفـــادي بشيء من مـاليته . ولكنني لم اسمع انه خرج مرة خاسراً ، او ان ارباحـه كانت تتجاوز الخمس روبيات . وكلهم في لعب الـ « بريدج » اخصائيون . الا ان الكسباني امـين كان يسدد حسابه في الفندق من حسابه في النادي . لانه في الـ « بريدج » مثله في التحفظ السياسي سيد الاخصائيين .

قد ذكرت النادي لاني اجتمعت فيه لاول مرة بزملاء سيدي النقيب ، بساسون وصبيح ونوري وياسين وبالسعدون عبـد المحسن موضوع حديثي الآن . واظنني فضحت نفسي في ما كنت اجهل من امر آل السعدون ومـا لهم من السيادة والنفوذ في العـراق . على ان من يقابل وزيراً لاول مرة في تلك الحال لا يلام اذا نسي التاريخ او تناساه . ظننتها جلسة « بوكر » وظننت الاعضاء مثل غيرهم في اندية القمار فسلمنا وما تحدثنا . بل نسيت الرجل فخجلت بعدئـذ مما كان . ضاع وجه السعدون بين الوجوه العديدة التي كانت تمـر صورها امامي في تلك الايام فلا ينطبع في الذهن منها الا القليل . ثم اجتمعت به مرة ثانية في نادي الحزب العراقي الحر الذي خطبت

فيه ، وكان هو جالساً الى جنبي ، فسلم علي فسلمت وانا اذكر صورة وجهه ولا اذكر اين بدت لي سابقاً . فسألته ، فاضحكني بلطفه وابتسامه .

اجتمعنا بعد ذلك مراراً ، وكنت كل مرة ادنو منه اراه بعين التصور قبل ان اراه بعين الجسم . فيتمثل امامي لابساً العباءة والعقال ، راكباً الهجين ، قائداً الى الغزو العربان . اجل ، ان صاحب المعالي عبد المحسن السعدون هو الوزير الاول في وزارته الذي تبدو فيه العروبة الحقة ، والثاني هو عبد اللطيف باشا المنديل . اما الاخرون ففي ظاهرهم مستمجمون . ناجي السويدي اشبه برجل من شمال اوروبا . صبيح بك نشأت هو في تركيته اظهر منه في عروبته . جعفر ونوري من الاكراد ، وساسون افندي حزقيل من العالم — من الاسرائيليين في العالم . اما السعدون فمن العراق . من صميم العرب ، ووجهه اصدق اخباره الصادقة .

هو رجل في العقد الرابع من العمر [1] ربع القامة ، اسمر اللون ،

---

(١) ولد سنة ١٨٧٩ م في الناصرية مركز لواء المنتفق ، وكان يومئذ والده فهد باشا حاكماً في اللواء واميراً على جميع عشائره ومقرباً من المـابين . فطلب منه السلطان عبد الحميد ان يرسل ابناءه الى الاستانة ليتعلموا في المدرسة التي كان قد انشأها خاصة لابناء رؤساء العشائر ، فارسل فهد باشا ابنيه عبد المحسن وعبدالكريم . وكان عبد المحسن يوم سافر الى الاستانة في الثالثة عشرة من سنه فتخرج من المدرسة المذكورة ، ثم دخل واخوه المدرسة الحربية العالية فتخرجا منها ضابطين في الجيش العثماني ، فاختارهما السلطان عبد الحميد مرافقين له في المـابين ، وبقيا في تلك الوظيفة الى اعلان الدستور ، وترقيا اثناء ذلك في الجندية الى رتبة بكباشي . على انهما استقالا من الجندية بعد سقوط عبد الحميد ، فرجع عبد الكريم الى وطنه ليهتم باملاكه التي في البصرة وفي المنتفق ، وبقي عبد المحسن مقيماً في الاستانة . ثم انتخب

حسن البزة ، اوروبي حتى رأسه — حتى الاستثنائية اريد . فالرأس اسود الشعر قصيره ومثل كتلة المدفع مستدير ، والعين فيه كالمشعل بين الليل والغسق . والفم عدل الا انه قاس قلما يبسم وقلما يتكلم . ولكنه عندما يتحرك يؤنس ، اذ تسارع اليه نفس جذابة فتمتزج بكلماته القليلة ، وفيها مضاء وليس فيها جفاء . رجل سكوت وكل سكوت لغز لمن لا يعرف شيئاً من سابق حاله . على اني الفت السكوت في من سافرت معهم من العرب . فكنا نسير ساعات في النهار جنباً الى جنب دون ان نفوه بكلمة واحدة . وكنت غالباً اعجب بما يخبئه السكوت فيهم من شمم وكرم وذكاء .

وهوذا السعدون عبد المحسن العربي السكوت ، ويحق لي ان اقول الآن السكوت العزوم . فقد برهن في وزارته التي استمرت سنة [1] على انه فعال لا قوال ، وعليم في ما يفعل حكيم . كانت نفسية البلاد من حيث المعاهدة ، التي رُفعت منها لفظة الانتداب ولم تمس قيوده ، كما وصفت في ما سبق ، عندما استلم زمام السياسة العراقية . فاقدم السعدون على عمل يعد من اهم اعمال وزارته ولسان حاله يقول : لا نضحك من الامة فنصور لها الانتداب خيالاً زائلاً ،

تابع شرح صفحة ٣٧٦

نائباً في مجلس النواب العثماني عن المنتفق وظل كذلك الى بداءة الحرب العظمى ، فرجع اذ ذاك الى وطنه العراق وتقلد بعد وصوله منصب وزارة العدلية في الوزارة النقيبية الاولى ثم وزارة الداخلية في الوزارة الثانية التي استقالت في شهر آب سنة ١٩٢٢ . والف الوزارة في كانون الاول من العام المذكور واستقال في تشرين الثاني ١٩٢٣ . وانهى حياته منتحراً وهو على رأس الحكم ثانية وذلك سنة ١٩٢٩ .

(١) تألفت في كانون الاول سنة ١٩٢٢ واستقالت في تشرين الثاني سنة ١٩٢٣ .

ولكننا نخفف عليها ثقل القيود . فتم عقد الملحق بين حكومة العراق وبريطانيا الذي بموجبه أنزلت مدة المعاهدة من عشرين سنة الى اربع سنوات (١) .

ولتلك المعاهدة ملحقات أخرى تتعلق بالجندية والمالية والقضاء وبشروط استخدام الموظفين البريطانيين في الحكومة العراقية . فتوفقت وزارة السعدون الى عقد الملحق الذي يتعلق بالقضاء ودرست الملحق الذي يختص بالموظفين البريطانيين ، فقدمت به لائحة فلم تقبلها حكومة الانتداب . وسعت في تحسين الصلات بين العراقيين والبريطانيين فكان سعيها مبروراً وان لم يكن مثمراً . وجاهدت في سبيل الميزانية فافلحت ، اذ اعادت اليها التوازن بالرغم عن التخفيض الذي اجازته في رسوم الاراضي الاميرية ورسوم المواشي والنخيل . ولكن هناك صخرة اصطدمت بها فحملها ذلك على الاستقالة .

يذكر القارىء ان في المعاهدة بنداً يوجب على الملك ووزارته وضع دستور للبلاد ثم انتخاب المجلس التأسيسي للنظر فيه وتنفيذه . فقد وضعت وزارة سعدون الدستور واصدرت قراراً يوجب مباشرة الانتخاب : فاعترضها في ذا السبيل مــا اعترض الوزارة السابقة من مقاومة علماء الجعفرية (الشيعة) . ولكنها تغلبت عليهم بعض التغلب

---

(١) هذا نص البروتوكول اي الملحق بالمعاهدة :

قد تم التفاهم بين الفريقين الساميين المتعاقدين على انه مع وجود نصوص المادة ١٨ يجب ان تنتهي المعاهدة الحالية عند دخول العراق عضواً في جمعية الامم وعلى كل حال يجب ان لا يتأخر انتهاؤها عن اربع سنوات من تاريخ عقد الصلح مع تركيا . وليس في هذا الاتفاق ما يمنع عقد اتفاق آخر لتنظيم ما يكون بعد ذلك من العلاقات بين الفريقين الساميين المتعاقدين، ويجب الدخول في المفاوضات بينهما لاجل ذلك الغرض قبل انتهاء المدة المذكورة اعلاه .

اذ قد تم في عهدها انتخاب المنتخبين الثانويين ولم يبق سوى انتخاب الاعضاء .

هي ذي العقبة الكؤود . قد سمعت ما قاله النقيب عند تغيظه في هؤلاء الاقوام ، واكثرهم من الاعجام . ان بسياستهم الوطنية اصولاً ونزعات كلها او جلها ولا شك مذهبية ايرانية . وان لعلمائهم في العراق نفوذاً يفوق نفوذ اعلى المقامات الرسمية . وفيهم المجتهدون الذين « يجتهدون » دائماً ان يعرقلوا مساعي الحكومة . ازعجوا السعدون كما ازعجوا سلفه النقيب . فاصدروا الفتاوى الدينية ضد الانتخاب والانتداب .

هاك ما حمل السعدون ، السكوت العزوم ، بالرغم من تردد الملك والمندوب السامي ، على العمل الذي يعد من اكبر اعماله ، اذا اعتبر فيه العزم والشجاعة فنفى الى الحجاز آية الله الشيخ مهدي الخالصي اكبر مجتهدي الكاظمية [1] والعراق ؛ فاحدث ضجة في البلاد ظن انها ستفضي الى ثورة ثانية . على انه لم يكن من نتائجها غير احتجاج نفر من العلماء فساروا الى ايران مغضبين .

اما جلالة الملك فقد كان يؤيد في البدء قولا وفعلا سياسة وزارته بالرغم عن احتجاج الشيعة في العراق وايران . وبما ان اكثر اهل الشيعة في العراق من التبعة الايرانية ، وهم ثابتون فيها ، فقد اصدر منشوراً طلب منهم فيه ان يتجنسوا بجنسية البلاد ليحق لهم التمتع بالحقوق التي يتمتع بها العراقيون . فزادهم المنشور سخطاً وتمرداً . وقام اولئك الذين ظعنوا الى ايران يتقدمون الشعب الايراني في التظاهرات على الملك فيصل ، وعلى المندوب السامي البريطاني . ثم

(١) زميله هو السيد صدر الدين .

اعلنوا مقاطعة البضاعة البريطانية .

قد احتجت كذلك حكومة طهران الى حكومة العراق فاحس بعض الخاصة في الدواوين بسلك كهربائي انكليزي في ذاك الاحتجاج. هزّ دار الانتداب في بغداد فتأثر القصر والمجلس ، فقال جلالة الملك بعد المذكرات ما قاله فخامة المندوب — ولكن العلماء استمروا مكابرين معاندين فقالوا انهم لا يرجعون الى بلادهم الا اذا نفذت اربعة شروط ، وهي : — اخلاء الانكليز للقطر العراقي ، — استقالة الوزارة الحاضرة ، — تحديد زمن الانتخاب ، — ادخال عدد من الشيعة في المجلس النيابي ، قال المندوب السامي ... فقال الملك فيصل ... فقالت الوزارة : الوداع .

وما اجمل التغيظ في الرجل الجريء العادل . قد جاءني من معالي الوزير كلمة بعد استقالته يقول فيها : « احببت ان اسعى لرفع الغشاوة الفكرية عن اخواننا الشيعة وانارة بصائرهم بالحقائق . فبينت لهم ان الموكل موهوم والموكَل غشوم . لقد قمت بهذا الامر في هذا المحيط وهذا الزمان وتحملت من الاعباء ما تحملت لافتح طريقاً لاخي الوزير الشيعي فيتمم ما بدأت به . وحينئذ يبدأ بتغيير عام لطرد جيوش الرياء والاوهام ، وينفخ في صور الاخاء والمساواة وتتم نبوءة اشعيا الفيلسوف حيث السباع والغنم يرتعون سوية ، ويسود سلام في العالم وسلامة الضمير في بني الانسان » .

هوذا عربي يحلم مثل النبي اشعيا الاحلام وينشد المثل الاعلى في العالم . وهو في موقف العمل كما تبين يفقه حقائق الحياة الوضيعة وما بينها كلها من صلة العقل والخيال . وان السعدون صريح اذا قال ، مخلص اذا مال : سألته عن رأيه في السياسة العراقية الوطنية وما هي

عقيدته تجاه الانكليز. فاجاب بما لا يقبل التفسير والتأويل « اني اعتقد ان منفعة الوطن تقضي علينا في الوقت الحاضر بان نكون في سياستنا تجاه الانكليز مصادقين لهم لاننا محتـــاجون اليوم اشد الاحتياج في نهضتنا السياسية الحاضرة الى يد مساعدة ودماغ راق نسترشد به . ولا نجد في هذا الباب خيراً من الانكليز . ولكن على شرط ان لا يجحف ذلك باستقلال البلاد او بمنافعها » .

جعفر العسكري (١)

زرته لاول مرة في وزارة الدفاع التي كان يومئذ وزيرها . وكان

---

(١) هو مثل سلفه السعدون في العقد الرابع من العمر ، وقد تلقى العلوم مثله في المدرسة الحربية في الاستانة ، فخرج منها ضابطاً ثم سافر الى المانيا ليتمم دروسه الفنية وقد بدا من نبوغه لانور باشا في الحرب العظمى ما حمله على ترقيته الى رتبة باشا وارساله على غواصة الى بنغازي لقيادة متطوعي العرب الذين كانوا يقصدون الزحف على البلاد الداخلة في المنطقة الايطالية . فقادهم جعفر وحدث على الحدود المصرية قتال بينهم وبين الجيش البريطاني فجرح في المعركة ، فاعتنى به رجال الصليب الاحمر ونقل بعد ذلك الى القلعة في القاهرة . فحاول التفلت من الاسر فوقع فانكسرت رجله فلزم الفراش ستة اشهر .

وكانت الثورة العربية في بداءتها والضباط العرب ينضمون اليها ، فكتب لجعفر ان يكون منهم ، فجاء سنة ١٩١٧ الى مكة ثم الحق بالجيش العربي الذي كان مرابطاً حول المدينة . ثم ارسل الى العقبة فعين قائداً من قادة جيش الشمال . وبعد فتح الشام تعين مفتشاً عاماً للجيش العربي في سوريا ، ثم حاكماً عسكرياً لولاية حلب ، ثم رئيساً لحجاب جلالة الملك ، وبعد واقعة ميسلون عاد الى بغداد ليساعد في تأسيس حكومة وطنية ، فتعين وزيراً للحربية في الحكومة الموقتة اي قبـــل التتويج ، ثم في وزارتي النقيب الاولى والثانية . ولما دعـا المستر تشرشل رؤساء مندوبي بريطانيـا في الشرق الادنى لمؤتمر القاهرة كان جعفر باشا ممن رافقوا مندوب العراق السامي وشاركوا في البحث في امور العراق المالية والعسكرية وفي شتاء ١٩٢٢ - ١٩٢٣ كان مندوباً للحكومة العراقية في لندن .

الحر شديداً ، فدخل والعرق يتصبب من جبينه يجر ما فرضه الله عليه من وزر السمن ، كأنـــه مدفع يتحرك بنفسه ، او كأنه في ساحة القتـــال حيث لا ترسم ولا تجمل . جعفر باشا لا يكذب اسمه ، فهو اولاً وآخراً عسكري ، يسرع ولا يتكلف في مـــا يقول ويفعل . سلم سلام الاحباب ونزع « ساكوه » وجلس في الكرسي وراء منضدته وهو يروح بمروحة من القش ويتكلم . فتمثل امامي رجلا اميركياً ، رجل عمل واهلية ، من اولئك الذين يديرون ادارات كبـيرة بالضغط على زر كهربائي . اما وزير الدفاع في الحكومة العراقية فكان يصفق كفاً على كف ليعطي اوامره . وهذا لا يهم عند روح العمل الجديدة التي تتمثل في جعفر وزملائـــه — روح العمل العصرية المجردة من خزعبلات الابهة الشرقية وسخافات اللياقة كلها .

— والله يا استاذ عندنا رجـــال وعندنا وطنية . ولكن الادارة مفقودة والمال ، اين المال . مثلنا ، او بالحري مثل الحكومة التي تولت في البدء امرنا ، مثل شاب ورث ثروة من ابيـــه فخسرها في القمار . بذل البريطانيون في سنة واحدة من المال في البلاد ما يكفي جيشاً وطنياً كبيراً خمس سنين . ولا اثر ولا نتيجة لما بذلوه . والآن نحن في اشد حاجة الى المال هم ينفضون ايديهم ويرونا كيساً فارغـاً . مبدئي الوطني واملي وعملي تتوقف كلها على تنظيم الجيش العراقي . يقول لنا الانكليز ، ساعدوا انفسكم نساعدكم . وهذا صواب ولكنهم افسدوا علينا وهم لا يدرون موارد المساعدة . عندما تكون البلاد في هياج سياسي يصعب على الحكومة فيهـا اية كانت ان تجبي اموال الخراج .

— وما هو عـــدد الجيش العراقي الذي باشرتم تنظيمه ، وما هي

حالته ؟

– عدده خمسة الاف وحالته المعنوية غير ما تروم . لا تظن ان السبب في ذلك نقص في الوطنية . لا والله . انما هو دليل من احد الوجوه على الوطنية . وهذه هي الورطة التي نحن فيها الآن . ندعو شبان البلاد الى التجند فلا يلبون واذا لبوا فيجيئون يعرجون ولسان حالهم يقول : اذا كان الانكليز يبغون الاقامة في البلاد فليدافعوا هم عنها . ومن وظيفتي انا ان اقنعهم بان الانكليز، **وهم في البلاد** غير مقيمين فيها ، وانهم **وهم الاغنياء بالمال والرجال** ، لا يستطيعون الدفاع عنها مع رغبتهم فيها . هل تعرف وزيراً في حكومات العالم اليوم هذا موقفه في السياسة والمنطق ؟

جعفر باشا حر الكلمة صريح الاشارة والعبارة . سألته رأيه في احد رجال السياسة العراقيين الذي كان يومئذ من المرشحين لرئاسة الوزارة فقال : اي رجل آخر احسن منه . درهم من الاهلية يا استاذ خير من قنطار مقامات . البلية الكبرى في هذه المقامات التي ليس فيها غير الادعاء والسخافة .

وهو ان رفعته الجدارة الى اعلى المقامات لا يكتفي بما عنده من خبرة وحكمة بل يسعى دائماً في ما فيه زيادة وتحسين . قد اخبرت القارىء في مطلع هذا الفصل بان حسين افنان سكرتير مجلس الوزراء هو استاذ في علم الاقتصاد ، ولا فرق في مصادر علمه اصلية كانت او منتحلة . فكنت ارى الحسين مكباً على ترجمة آدم سميث [1] وغيره من اساتذة هذا العلم واعجب باخلاصه ، وبقوله : خير لي ان اترجم عن الثقات من ان اجيئهم بما يجلب اللعنات . انك لترى الفقيه

(١) The Wealth of Nations , by Adam Smith

والاديب والوزير في مَن يحضر تلك الدروس الاقتصاديـــة ولست مبالغاً في ما اقول .

دهشت يوم اخبرني جعفر باشا بانه يحضر دروس السيد افنان وازددت اعجاباً بمعاليه . اطلب العلم من المهد الى اللحد . ليس اشرف من الحديث النبوي المأثور غير الحديث النبوي المتجسد في وزير من وزراء العرب وهو تلميذ من تلاميذ كاتب سره .جاء جعفر باشا يزورني يومئذ في البيت ويدعوني للعشاء في بيته .

— لا نظنك تؤاخذنا ونحن لا نزال في مـا هو اشبه بالكوخ . ولكنه خارج البلد فتمر في طريقك ببساتين يروقك منظرها .

ثم تطرق في حديثه الى الانكليز ، وهـو معجب بهم متخوف منهم ، الانكليز وجعفر مثل الحية والعصفور . ولكن الوزير العراقي وان وقف امام الحية مسحوراً ، فلا يمكنها منه . اسمع ما يقول :

— يجب ان نتفاهم واياهم ونتفق . وخير البر عاجله . الانكليز يختلفون عن بقية الناس . هم وحدهم يا اخي — ممتازون ! نزلوا من السماء في قفة . افلا ترى كيف يسلكون في نهارهم وفي ليلهم ؟ يلبس الجندي منهم البنطلون القصير فيكشف ساقه حتى الركبة — ابن عم البرابرة — ولكنه في المساء ، اذا دعي للعشاء ، تراه في ثوبه الرسمي وفي سلوكه كأنه من الاعيان . فلو كانت هذه الحرية لنا لكنا برابرة في النهار وفي الليل ... يجب ان ندرس هؤلاء الانكليز ونفهمهم ، ونتفاهم واياهم . هم لازمون لنا في الوقت الحاضر .

وقد حاول في السنة التي تولى فيهـا رئاسة الوزارة ان يفهمهم ويتفاهم واياهم . فدرست وزارته ملاحق المعاهدة الثلاثية الباقية اي تلك التي تتعلق بالجندية والمالية والموظفين الانكليز . ولكن المجلس

التأسيسي ، او بالحري اللجنة التي عينها المجلس لدرس تلك الملاحق والاتفاقيات ، رأت ان الشروط فيها فادحة فتفاقمت على الوزارة الاحتجاجات ، فاستقالت .

ياسين الهاشمي

كان ياسين باشا [1] من المغضوب عليهم في دار الانتداب يوم كنت في بغداد ، وكانت المس بل مع ذلك تعجب به وتحترم آراءه . وقد يصح فيها وفيه ما قلته في جعفر باشا والانكليز . هما مثل العصفور والحية . على ان الآية تعكس ها هنا ، فلا تنحصر الحكمة والجاذب في المرأة .

كنت اجتمع بياسين باشا في النادي فاسمعه يجهر برأيه ضد الانكليز او بالحري ضد حكومة الانتداب . وكانت المس بل تدعوه لمائدتها

(١) ولد ياسين باشا الهاشمي في بغداد سنة ١٣٠٣ . تخرج في المعاهد التركية فيها ودخل بعدئذ في المدرسة الحربية بالاستانة وخرج منها في سنة ١٣٢٠ برتبة ملازم ثان وبعد ان درس سنتين في مدرسة ضباط اركان الحرب تقلد عدة وظائف في الجيش التركي الى ان اعلنت الحرب العامة وهو وقتئذ رئيس اركان حرب . وقد اشترك في مواقع غاليسيا وغيرها وكان في رأس الفيلق الثامن لما انهزم الترك في سوريا فانخرط في الجيش العربي وعين رئيس اركان حرب حاكم سوريا العسكري ورفع الى رتبة امير لواء وعين رئيساً لديوان الشورى وقد خطفه الانكليز ونفوه . وبعد رجوعه من المنفى احتل الفرنسيون سوريا فعاد الى مسقط راسه بغداد سنة ١٣٤٠ فعين متصرفاً للمنتفق . وبعد ان تولاها مدة شهرين عين وزيراً للاشغال والمواصلات في وزارة عبد المحسن السعدون . ثم انتخب نائباً عن لواء بغداد في المجلس التأسيسي . وكان رئيساً للجنة تدقيق المعاهدة العراقية البريطانية ولجنة قانون الانتخاب ولما اتم هذا المجلس اعماله واعتزلت وزارة جعفر العسكري انتدب لتأليف الوزارة في ٢ آب سنة ١٩٢٤ .

فيجيء في ثوبه اليومي وبآرائه التي هي مثل ثوبه طليقة ، لا تقيد فيها ولا ادعاء .

وكان على الدوام كئيباً . وكانت الكآبة بليغة مستحبة ، تنظر من عينه السوداء كأنها تقول : ان هدوء نفسه ، وحسن وجهه ، وشجا صوته ، انها كلها مني . ظننت تلك الكآبة من خلقه ولكني ، علمت بعدئذ ان ابنه الصغير الوحيد كان مريضاً ولا يرجى شفاؤه فاغلقت في وجهه ابواب الطب كلها ، وانصرف عنها وعن الاشغال يسعى بما عسى ان يصل الى عرش الرحمة الاعلى ، فيأذن الله بشفاء صغيره العزيز .

لم يستجب الله طلبة عبده . وعندما رحت اعزي ياسين باشا الذي كان يومئذ وزير الاشغال في وزارة السعدون ، استقبلني هاشاً ولم يأذن بتلك الكلمة المألوفة التي لا تغني فتيلا . ما شاء الله كان . هو مثل داود النبي تقي في المصيبة ، فيلسوف في الاحزان .

ولكنه في السياسة لا يستسلم دائماً الى الاقدار . اما وفي ذلك الوقت كان رئيس الوزارة التي خلفت الوزارة الجعفرية ، وكان رئيس اللجنة ، لجنة تدقيق المعاهدة ، التي عينها المجلس التأسيسي ، فماذا عسى ان يكون موقفه في سياسة اصبح لا يملك غير طرف واحد منها ؟

جاء في تقرير اللجنة ان في بنود المعاهدة والملحقات ما يثقل كاهل العراق فلا يمكنه القيام بتعهداته . ثم تطلب اللجنة التعديلات الآتية :

— التصريح باستقلال الدولة العراقية .
— التصريح بالغاء الامتيازات الاجنبية قضائية كانت ام اقتصادية .
— الحكومة العراقية حرة في تنظيم ميزانيتها السنوية .
— التصريح بان الحكومة العراقية ستصبح حكومة حرة مستقلة

ذات سيادة تامة عند دخولهـــا في عصبة الامم او عند انتهاء الاربع سنوات .

وهاك تعديلات فرعية تتعلق بالاتفاقيات المالية والعسكرية .

فمهما قيل في وجوب هذه التعديلات كلها لا اظن معالي الوزير الجديد يسعى في نقض قاعدة مالية اجمعت الامم على صحتهـا . يقول العراق لبريـــانيا : يجب ان تسحبي قواتك من العراق ويجب ان تقرضيني مالاً لانشىء جنداً وطنياً يقوم مقامهـــا . فتقول بريطانيا للعراق : يجب ان تعطيني ضمانة على المـــال وستبقى بعض قواتي في البلاد الى ان تسدد الدين .

هوذا المشكل الذي يُرجى حله في عهد الوزارة الهاشمية خصوصاً لان فيها اخصائياً في التجنيد هو رئيسها واخصائياً مالياً هو ساسون افندي [1] .

جرترود بل

النادي العراقي مختص بالرجال دون النساء ،ولكنني سمعت يوماً

(١) كان الوزير الثابت في الوزارات العراقية لان ليس في العراق من يضاهيه في علم الاقتصاد والتضلع من ادارة الشؤون المالية . ولد ساسون حزقيل في بغداد في ١٧ اذار سنة ١٨٦٠ وتلقى علومه في بغداد ولندن وتخرج في الحقوق بفينا عاصمة النمسا. وقد شغل عدة مناصب ادارية في الحكومة العثمانية الى ان انتخب نائباً عن بغداد في مجلس النواب العثماني من سنة ١٩٠٨ الى ١٩١٨ وكان رئيساً للجنة المالية في ذاك المجلس سنين عديدة ، وعين مستشاراً لوزارة التجارة والزراعة في الاستانة . ولما تألفت الحكومة الموقتة في العراق في تشرين الثاني سنة ١٩٢٠ عين وزيراً للمالية وبقي في الوزارة المذكورة ثلاث سنوات اي الى ان استقالت وزارة السعدون. ولما تألفت الوزارة الهاشمية في شهر آب سنة ١٩٢٤ اسند اليه المنصب نفسه

صوت امرأة في غرفة القراءة ، فدخلتها فاذا هناك المس بل وأحد الوزراء يتجاذبان اطراف الحديث كما يقال . وكنا يوماً مدعوين انا والسيد افنان لمأدبة فمررنا بأحد المستشارين ظننا منا بانه وزوجته من المدعوين فقال المستشار : انا ارافقكم اما الست فلا . يظهر ان الليلة مختصة بالرجال . فقلت : وقد سمعت ان المس بل ستكون هناك . فقالت السيدة زوجة المستشار : ولكن المس بل ... وسكتت .

نعم ، ان المس بل في صفتها الرسمية لمن الرجـــال . فهي لا تقيد نفسها بما يقيد بنات جنسها . وهي تغضبهن لان الحرية التي الفتها لا تأبه للاصطلاحات العقيمة . على ان الوظيفة تضطرها احيانا الى ما يظنه الناس تعمداً في الخروج عن المألوف . وهي في صفتها الرسمية تعمل عمل الرجال . بل هي شبه وزير دار الانتداب وعليه سأفسح لهـــا في هذا الفصل مجـالاً . ولا اظن اصحاب المعالي الوزراء يستنكرون او يعترضون .

ان السيدة جرترود بل كاتبة اسرار المندوب السامي في الامور الشرقية او رئيسة القـــلم الشرقي في دار الانتـداب [1] لمن اولئك الانكليزيات القليل عددهن اللواتي يستشرقن او يتعرّبن لدافع فيهن نفسي بل روحي يصعب تعليله على مـا اظن بغير ناموس التناسخ او الوراثة البعيد الاسرار والاسباب . ان امرأة عالمة ، نشيطة ، حصيفة ، ذات عزم ومضاء مثلها ، لتجد في بلادهـا من دواعي العمل والشهرة والفخار ما يرغبها عن البلدان الاجنبية ولكن نزعة فيها الى الشرق ، الى العرب ، تغلبت على كل آمالهـا ومطامعها ، فجاءت الشرق الادنى سائحة ، طالبة علم ، وجالت في البلاد العربية ، فقطعت الصحراء الى

(١) Oriental Secretary to the High Commissioner.

جبال شمر وحائل ، وآخت العربان ، ووضعت كتباً عن العرب والبلاد العربية والسورية فيها العلم مقرون بالعطف والاخلاص . ثم جاءت ايام الحرب الى بغداد فكانت للقيادة العامة والوكلاء السياسيين عوناً كبيراً في ادارة شؤون البلاد .

ان المس بل لتعلم من امور العراق وعشائره ومشايخه واشرافه وتجاره والسياسيين فيه ما يندر ان يعلمه سواها ، وهي تتكلم العربية بلسان تخف اللكنة فيه وتجالس العرب فتستأنس بهم ، ولا تكلف ولا عناء ، كأنها تجالس من تحب من ابناء جنسها ، بل كأنها عربية بنت عربي .

امرأة طويلة نحيلة جليلة ، تكاد تكون مجموعة اعصاب وافكار ، هادئة الاشارة واللهجة ، هادئة البادرة ، يتغلب في حديثها العقل ، وتتغلب في عقلها السياسة . وهناك شيء من القلب ، بل اشياء ناضجة مستوية ، تزاحم العقل والسياسة احياناً فتجيء تارة عفواً وطوراً تنم عن اجتهاد وعناء .

حدثني احد المستشارين قال : طريقه المس بل السياسية قديمة ، وهي مع ذلك لا تركن في الامور لعقلها دائماً ولا لقلبها . وقال آخر : الناس يأبون التأديب اسواء كانوا عراقيين ام انكليز .

ولكن المس بل لا تجبه العراقيين بالقاعدة والقضيب كالمعلمة المرشدة . بل تجيئهم مراراً وهي تحمل هدية بدل القضيب . هوذا قلبها عربون اخلاصها ايها الزعيم الوطني . هي ام المؤمنين يقيناً . واذا رفضت الهدية والمشورة ، اذا ابيت النصح والامتثال ، فهوذا السجل وفيه سيرة حياتك منذ دببت ودرجت الى يوم وقفت مستعطفاً او محتجاً في دار الانتداب .

لذلك لا يبادلها العراقيون الحب والوداد . ولكنهم يحترمونها ، ويعجبون بها ، ويودون لها ما يوده المرء لعمته او الفتاة لخالتها . لا تحبينا كثيراً عافاك الله ولا تتدخلي كثيراً في امورنا [1] .

---

(١) وافتها منيتها في بغداد سنة ١٩٢٦ .

الملك فيصل والعراق

اصحاب القوافي

السياسة والمقاهي – الفرج في التدخين – الشعراء – معروف الرصافي في القريكة – في الاستانة – الرحالة والشاعر في بغداد – الشاعر الناقم على الجميع – المس بل تحافظ على اللياقة في الصحافة – الشاعر يؤنبها – غضب المرأة الراقية – لا منفى للشاعر – ذنب الحرية – عقيدته في الدين – اقاربه في العالم – شيء من شعره في الشعر –
من ذا القادم من المعرة راكباً حماراً أبن اتان ؟ – وصف الزهاوي – شيخ زاهد – ليلى الاخيلية تمسح دموعه – شكاية الشاعر الفيلسوف – قصة شاعر الملك – « لا امــدح بالاجرة » – المبتذل في شعر الزهاوي – « نزعات الشيطان » – حقائق رائعة – « ياشرق ويا غرب ؟ » – الشعر الحقيقي .
اولئك الذين يكفرون الناس – نقيق الضفادع – الاعظمية والكاظمية وراهب كبوشي كرمي – التقليد والتقييد والتعقيد – شاعر لا قلب له – اوهام الغيرية والاحسان – الدجيلي شاعر القوة القاهرة – هنلي ونيتشي – شيء من شعر الدجيــلي – الـ« رياليزم » realism في شعره – مادي يهتم بالارواح – وطني يقرّع ابناء قومه ومذهبه – رابع الكفرة – ان الكرام قليل – « الفقر يشيعهم من الديوان الى البيت » مجيد الشاوي – في وجهه شيء من الاسد والنمر – وليس على صدره نيشان – ولا يعرف التبسم – الى من ينتسب – ابن عمي – المعري والخيام – في مجلس السيد محمود النقيب – جدال في حلم النبي وحنانه – وما ذنب النساء في الحروب؟ – دائرة معارف الادباء في العراق روفائيل بطي – مثال من نثره وشعره المنثور .

لولا الشعراء في العراق لمشمت السياسيين ، ولولا السيــاسيون لفررت هارباً من الشعراء . وبكلمة اوضح لولا الفريقان حولي لكنت من الهالكين . بيد اني مشيت مثل البلهوان على حبــل الاحتفالات والتكريم ، احمل بيدي خيزرانة التوازن وفي احد طرفيهــا اكرة

السياسية وفي الآخر قيثارة الشعر . تباركت الامة التي يتوازن فيها الشعر والسياسة .

ليس في امم الارض على ما اظن من يهتم بالسياسة اهتمام الامة العربية . وليس في الاقطار العربية كلها من يشغفون بالسياسة شغف العراقيين . في مدينة بغداد مثلاً ثلاثمئة مقهاة وفي كل مقهاة عشرون سياسياً في الاقل يدخنون الارجيلة ليل نهار ويديرون شؤون العرش والانتداب . ولكل سياسي رأي في السياسة الدولية وسياسة العراق غير رأي زميله وجاره. الا انهم لحسن الحظ يدخنون وينسون . ان في الارجيلة لتعتصم الامة

معروف الرصافي

ولكن في هذه الامة اناساً ممتازين يدخنون ويكتبون ، فيجمع اليراع احلاماً يولدها التنباك ويبددها ، ويحفظ القرطاس من النغمات والنقمات ما لا تعددها . هم الشعراء . واكثرهم بل كلهم في العراق اليوم سياسيون ينظمون ، او نظامون يعالجون السياسة كرماً منهم ، وفي مقدمتهم شاعر تجاوزت شهرته حدود بلده ، فرحبت بها سوريا ومصر والاستانة ، واجلستها على ديوان الفخر والاعجاب .

وقد وصلت هذه الشهرة الى الفريكة في شخص صاحبها المحبوب معروف الرصافي يوم كان عربياً — بدوياً — في قلبه ولهجته ، وفي نظمه وقيافته . نام معروف الرصافي يومئذ في خيمة الناسك المشرفة على الوادي ، واكل من جفنته ، وشرب من ابريقه . ثم سافر الى الاستانة اولاً وثانياً ، وكان فيها من المرشدين الواعظين ، وعاد منها يلبس الطربوش والثياب الافرنجية ، فافصح ذا التطور الظاهر عما

خفي منه فيه . اجل ، قد افسد الاتراك او بالحري مدنية الاستانة — وهي في هذا الباب اشد واسرع فعلاً من مدنية باريس — قد افسدت شيئاً من السذاجة الجميلة في شاعر عربي مجيد . احترقت حواشي تلك السذاجة فتغير لونها وطعمها ، وصار الشاعر سياسياً ، وصار العربي مسلماً . او بالحري صار الشاعر في سياسته وفي اسلامه تركياً من اتراك الزمان .

على ان الرصافي وهو ممن خصهم الله بشعلة النبوغ - والنبوغ طموح ، والطموح جهاد مستمر — لم يقف في التطور عند حد يريب ويعيب ، بل ظل يشتغل في الادب والشعر حتى امست السياسة التركية الاسلامية بعيدة عنه ، تكاد لبعدها لا ترى ، وحات محلها سياسة عربية قومية ، مجردة من كل نزعة دينية . وكل صبغة مذهبية وكأني بمعروف قد عاد الى تلك الخيمة ، خيمة الناسك ، فذكر فيها الجفنة والابريق ، وعقيدة الاخ الصديق ، الذي كان مثله هدفاً لعوامل التطور الشديدة . فقد صار ناسك الفريكة رحالة ، فراح يجول في الارض غرباً وشرقاً ، حتى اجتمع بعد سنين بصديقه الشاعر في بغداد وهو يشغل وظيفة صغيرة في وزارة المعارف .

وكان معروف اول المرحبين ، واول من قال شعراً فيه زجرة وفيه انين . شكا الى صديقه القديم حالاً وهو فيها فقال :

اقمت ببلدة مُلئت حقوداً — علي فكل ما فيها مريب
امرُّ فتنظر الابصار شزراً — الي كأنما قد مرّ ذيب
وكم من اوجه تبدي ابتساماً — وفي طي ابتسامتها قطوب
سكنت الخان في بلدي كأني — اخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه — لاني اليوم في وطني غريب

وما هذا وان آذى بدائي ولا هـو امره امر عجيب
ولكني ارى ابناء قومي يدبّر امرهم من لا يصيب

وحمل على السياسيين في العراق، الوطنيين منهم والانكليز، وحمل كذلك على الاغنياء والاعيان، وشكا الدهر والزمان، كان صديقه الرحالة يحمل في حقيبته دواء لكل ادواء الانسانية وترياقاً لسموم الحكومات الانتدابية والاستعمارية .

أأمين لا تغضب عليّ فانني لا ادعي شيئاً بغير دليـله
من اين يرجى للعراق تقدم وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف عند جبانه والمال عند بخيله
والرأي عند طريده والعلم عنـد غريبه والحكم عند دخيله

ما كنت لاغضب على صديقي الشاعر لو لم اكن جئت العراق من قطر عربي ليس فيه جزء صغير مما في العراق من دلائل الرقي وطلائع الادب والعمران . الا ان غضبي عتاب اخوان، ولعب صبيان، اذا قوبل بغضب اصحاب المناصب العالية، والسيادات الدينية البالية . وليس غضب هؤلاء وهم رجال بشيء اذا قيس بغضب سيدة سائدة، لها الامر وهي اجنبية، ولها نفوذ يمتد حتى الى ادارات الجرائد العراقية .

قد اغضب الرصافي المس بل فحالت دون نشر قصائده في الجرائد . وهذا قليل من كثير جاءه منها بالاساليب الدقيقة الخفية، لانها وهي امرأة راقية وهي فوق ذلـك سياسية، لم تناصبه العـداء بالطرق الاعتيادية، ولا اخطأت كما اخطأ سابقاً دار الانتداب في نفيه الوطنيين الاحرار . كأنها قالت في نفسها : هو شاعر، والشعراء يلتذون بالسجن ويفتخرون بالمنفى وفي الاثنين مـا يكفيهم مؤونـة

العمل فيضمن لهم خبز يومهم والعزلة للنظم والتأليف . دعت المس بل معروفاً وشأنه ، ولم تلتجأ في تونيبه الى غير الدقيق الخفي من اساليب النقمة عندها . وكان معروف يومئذ ناقماً على العراق كــله كما تقدم وعلى كل من فيه :

سأنصب للهواجس حر وجه   يعود الى الشروق به الغروب
واضرب في البلاد بغير مكث   اجوب من المهامة ما اجوب
الى ان استظل بظــل قوم   حيــاة الحر عندهم تطيب

وكان امله ان المس بل ، وهي ولية الامر ، تسمع في الاقل هذه الشكوى منه ، فارسل اليها كتاباً يقول فيه انه يحترمها لانها عالمـة ولكنها في الامور الوطنية ليست اعلم منه ، وانها اذا احسنت العمل يخلد ذكرها في التاريخ والا فلا رادع لشعره عنها « واني ارجو ايتهـا السيدة ان يكون لغضبك نتيجة ظاهرة »

سكنت الخان في بلدي كأني   اخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيـه   لاني اليوم في وطني غريب

افلا ترثي المس بل لحاله ، وقد سئم الاقامة في بلاد لا خير ولا ما يشبه الخير فيها ، فتسعى بابعاده او بسجنه او بنفيه ؟ انمـا الرصافي لم يفقه عقلية المرأة المهذبة ولا ادرك السر الاول من اسرار قلبها . فهو يطلب منها ما يبغي حقيقـة ولا يخفي غرضه او يوه به . فلو قال لها : اني افضل زاوية مظلمة في سرداب من سراديب بغداد على قصر في الأستانة لكانت سعت ولا ريب بابعـاده عاجلاً عن العراق ، بل بتسفيره الى الاستانة .

اما العلماء الناقمون على الرصافي او بالحري الناقم هو عليهم فانهم يجدون قصتهم في بيتين من شعره :

لقد مزقوا احكام كل ديانة   وخاطوا لهم منها ثياب رياء
وما جعلوا الاديان الا ذريعة   الى كل شغب بينهم وعداء

ولا همهم أأبعد الرصافي عن العراق ام لم يبعد ، فهم يعلمون ان الشاعر المجيد الحر الذي تتناسخ وتتناقل اشعاره الناس قبل ان تطبع يستطيع ان يضربهم اينما كان . وقد تجيء الضربة شديدة بالنسبة الى بُعد مرماها . لذلك اقتصروا على تكفيره في بلده وشرعوا يشنعون به لدى العامة حتى صار يُنظر اليه اذا ما مر « كأنما قد مر ذيب » وهو والحق يقال ذئب الحرية في العراق يثب على كل من يحاول قتلها او تقييدها .

للمعروف الرصافي عقيدة في الدين والآخرة تكاد تكون مادية ولكنه وهو الحكيم المدرك حدود علمه ، قلما يفصح عنها تأكيداً وتفصيلا في ما يكتب وينظم . وعندي انها في هاته الحال السديمية اشد تاثيراً في ما يقصد بها من اصلاح العقائد والتقاليد . قال لي مرة : لا تصطلح البلاد العربية وترتقي الا بالفكر . وانا افهم وهو يفهم ما يريد بما قال . فلو نطق كعالم بموجب قياس العلم والمنطق لما كان يؤثر في الناس كفره المزعوم .

ولرب قائل يقول : مالك وانت تكتب عن شاعر تقدم في شعره السياسة والدين ؟ الجواب : ان الباحث اليوم في احوال الشرق عموماً والعرب خصوصاً يرى ان للسياسة والدين الشأن الاول في امورهم كلها . اجل ، ان في مصبغتي السياسة والدين تصطبغ الاقوال والاعمال والامال ، فيندر الشعر الصافي والنثر الادبي في ما ينظمون ويكتبون . وعندما اجد في ثمرات العقول الكبيرة الحرة ما يعارض النعرات المبتذلة الذميمة بنزعات جديدة في الفكر والاعتقاد

اقدمها عملًا باهميتها على غيرها . كذلك سلكت في تشريح جزء من شخصية الرصافي الممتازة .

اما الشاعر فيه المجرد من نعرات الناس ، ومن النزعات السياسية كلها – الشاعر الذي لا يعرف في الحياة غير الشعر والجمال والحقيقة العلوية فيهما – فهو دائمًا فوق الجماعات والاحزاب، لا يعتبر في الانساب غير النسب الذي بينه وبين البلابل ، والعواصف ، والكواكب ، والازهار . ولا وطن له غير وطن الفكر والعلم والحرية . فهو اذا سألته : ما الشعر ؟ يجيبك قائلًا :

وما الشعر الا كل ما رنّح الفتى
كما رنّحت اعطافَ شاربها الخمرُ
وحرّك فيه ساكن الوجد فاغتدى
مهيجاً كما يستنُّ في المسرح المُهر
فمن نفثات الشعر سجع حمامة
على ايكة يُشجي الحزين لها هدر
ومن شذرات الشعر حوم فراشة
على الزهر في روض به ابتسم الزهر
ومن ضحكات الشعر دمعة عاشق
بها قد شكا للحب ما فعل الهجر
ومن جمرات الشعر رنة ثاكل
مفجعة أودى بواحدها الدهر
ومن نفحات الشعر ترجيع مُطرب
تعاود مجرى صوته الخفض والنبر

وان من الشعر ائتلاف كواكب
بجنح الدجى باتت يضاحكها البدر
وان ابتسام الغيد عن كل اشنب
ليطرب نفسي فوق ما اطرب الشعر

هو ذا الشاعر الحقيقي . هو ذا الرصافي ينطق بلغة زملائه واقاربه في البساتين وفي السماء .

جميل صدقي الزهاوي

والرصافي زميل ونسيب من الناس يشاركه الاقامة في العراق كان ينبغي لي ، لو اعتبر السن والعلم في الشعر ، ان اقدمه عليه . ولكن الشاعر هو شاب ابداً والعلم في الشعر يكسبه حكمة ولا يزيده جمالاً . على ان لجميل صدقي الزهاوي منزلة في الشعر العربي اليوم لا يشاركه احد بها . فهو في علمه ، وفي شعره اقرب نوابغ العرب الى المعري ابي العلاء . واذا صح مبدأ التناسخ والحلول يكون « رهن المحبسين » قد عاد الى هذه الدنيا بعد الف سنة فاتخذت روحه الزهاوي محبساً جديداً ، ومعقلاً من الفكر مجيداً . اوَ ليس شبيهاً بصوت صاحب اللزوميات صوتُ من قال :

نم بعيداً في خلوة الاجداث   من رغاء الخطوب والاحداث
انما الموت خير ما خلفتـه   لبنيها الاباء مـن ميراث

وما كان المعري في هذا التجسد الجديد موفقاً في الصحة والعافية ، لان شللاً في رجل من حل فيه يمنعه عن المشي . جاء في اللاميـة الزهاوية :

وقد احاول ان اسعى فتمنعني   رجل رمتها يد الايام بالشلل

فاضطرته اذا خرج من البيت الى الركوب ، وكان اختياره في المركوب اختيار الشاعر الفيلسوف . هــوذا الزهاوي راكباً اتانه البيضاء كأنه من مدينة المنصور المدورة لا من بغداد الجديدة . ولكنه يلبس الطربوش لا العمامة فيبدو شعره من تحته خُصلا منثورة شاردة ، لكل منها يد من الهواء تداعبها فتبعدها عن اختها . وقد يتصل بعضها بشعر لحيته الشمطـاء « البلشفية » التي لا تخضع حتى لمقرض او لمشط . وهي تظهر في اشد المظاهر الفوضوية في الشوارب منهـا الثائرة على كل نظـام . وقـد اختبأ تحت الشوارب جل ذاك الفم البليغ الذي هو ختم الغم اذا سكت ، وباب الصواعق والاضاحيك اذا تكلم . امـا الانف فمنبسط الاطناب مستريح تحت عين دامعة تشكر النظارات على ما تجسمه وتوحده لها من الوان الحياة . ويشرف على هذه الايات في التكوين المنثور جبين رفيع نصيع منيع .

اما ثيابه فافرنجية ، ولكنها كذلك حرة ابية ، لا يهمها الشكل والزي ، وقلما تلفت الاناقة فيها النظر . بنطلونه كالكيس حول الساق ، قميصه مفكوكة الزر عند العنق ، ومستقلة في بياضهـا – غير الناصع – فلا يحتل قسماً منه شيء مما تدعوة ربطة رقبة . شيخ زاهد بكل شيء الا بالعلم والحرية ، وليلى الاخيلية . اجل ان للزهاوي ليلاه ، تطرد من نفسه الظلمات ، ومن قلبه الشبهات ، ومن بيته الطالبات هي عروس شعره ، عروس حياته ، عروس افكاره واحلامه . وهي كذلك رمز سياسته .

كان يهوى ليلى ابن عم لليلى فابتغاها من اهلها كخطيب
ولقد اخبروه من بعد حين ان ليلى قد زُوجت بغريب

وان هذا الشاعر ليشرك في بعض الاحايين بحب ليـلى كل عاشق حزين . هي ليلى الاباحية التي يخاطبها فيقول :

ليلى أطلي على العا — شقين ليـلى أطلي
تري اعزة قوم — مطأطئين بـذل
تري صدوراً من الشو — ق والصبابة تغلي
عدي وان كان وعد الـ — حبيب رهناً بمطـل

ثم يتفلت الشاعر من يدي الوطني والفيلسوف ، ويركب وعروسه الاتان البيضاء ، الى الصحراء ، او يختلي بطيفها في داره ، فيسمعه من الشعر الرقيق المنسجم ما يقارن اجمل نفثات « المجنون » .

ابيت في الدار وحدي — معاتبـاً لخيالك
قد غرني انه كا — ن باسماً كمثالك
لا تسـألني عمـا — اصابني بعد ذلك
ما زلت اضمر حباً — مناسباً لجمالـك
ابيع كل حياتي — بساعة من وصالك
اني بحبـك يا ليـ — لى لا محالة هالك
فهل سأخطر يوماً — اذا هلكت ببالك؟

جاءني الشاعر الفيلسوف ذات يوم يحمل الي شكاية هي ظاهراً عن ليلى وعشاقها « ما هم والله اهلاً لها ، ينظمون الشعر للاخيلية ويقدمون هدايا للاجنبية . والملك فيصل لا يكترث ، واذا اكترث فلا ينصف . أو َلم اقل له في قصيدتي :

لا يرأس الناس في عصر نعيش به — الا الذي لقـلوب الناس يمتلك

والشاعر يا استاذ من الناس ، وله فوق ذلك حق على الناس ، في من يملكون او يأمرون . ترانا نحمل النار بايدينا الى امة تكاد من الدنق

تموت ، فيوقفنا في الباب اناس لا يساوون قلامة ظفر . »

هي الحقيقة في كل قطر من الاقطار العربية . ولكنها في العراق مجسمة في كبار شعرائه . اعجب بشعراء غاضبين شاكين ، وقد تنازلوا عن مكافحة الزمان الى مكافحة الانسان . الا انهم يختارون ولا شك الاقران ، او من يدنو من الاقران . حمل الرصافي على سيدة اجنبية من اجل ليلى وعشاقها . وجاء الزهاوي يشكو من مدّحه بالامس وكانت لا تزال قوافيه ترن في البلاد .

ـ سألوني يا استاذ ان اكون شاعر الملك وعينوا لي راتباً شهرياً . فقلت : لا امدح بالاجرة . واني اقبل الوظيفة بشرطين : ان لا اقول الا عندما ارى المدح واجباً وان يكون الراتب لوظيفة غير المدح .

فغضب جلالته ، وكان لي على بعض الاصحاب السائدين حق المساعدة فاغتنموا فرصة غضب الملك وانقلبوا علي . والله يا استاذ ما قبلت ان اكون شاعر الملك الرسمي الا بالشروط التي ذكرت ... معاذ الله ان اصير في اخر هذا الزمان مداحاً بالاجرة .

هذا نصف القصة سمعته غير مرة في بغداد كما رواه الزهاوي . وسمعت كذلك النصف الآخر . اما جلالة الملك فيصل فقد كان بين النصفين ، تتجاذبه اكثر من ارادتين . واني اروي القصة كلها لما فيها من نور يضيء بعض زوايا الملك الجديد . اننا نري في البداءة جلالة الملك بين شاعرين هما صنوان ، هما شاعرا العراق الاولان . وللشاعرين اصحاب من ذوي السيادة والنفوذ في المدينة وفي البلاط . وبين الشاعرين ، بل بين الشعراء على الاطلاق ، منافسة دائمة تكاد تكون طبيعية . قد فات ذلك جلالة الملك فاغضب في انعامه

الشاعرين معاً .

ولو كان ممن مارسوا الشعر وخبروا طبائع الشعراء لاختار لهذه الوظيفة احد ابناء الطبقة الثالثة او الرابعة لانهم يحسنون المديح اكثر من سواهم ، ولكان كفى نفسه عداء شاعري العراق الكبيرين بل كان في استطاعة جلالته ان يعمل احسن من ذلك ، فيقول لمن حببوا اليه « الشاعر الرسمي » ، اننا في بداءة امرنا ، ولا حاجة لنا بمدّاح مأجور . او انه يقول : شاعر البلاط من كمالات الملك ونحن اليوم احوج الى الضروريات . أفلا تظنه مفلحاً لو اتخذ هذا المسلك ورفض ان يعين شاعراً رسمياً ، فيصير شعراء العراق كلهم شعراء البلاط — وبدون اجرة ؟

ظُلمت والله يا استاذ . انا لا ابغي اجرة على المديح اذا مدحت واني لا امدح دون فكر او نصح . ألم أقل لفيصل :

تلقي اعتمادك لاستتمام نهضتهم على الذين بنهج الحق قد سلكوا
على اناس لصدق القول قد لزموا على رجال لغل النفس قد تركوا
على الألى عرك الايام أظهرهم عركاً طويلاً وللايام قد عركوا

ومن يا ترى عركتهم الايام مثل الزهاوي ؟ ولكن الشاعر يخدم بلاده في ما لا يحسن الخدمة أحد مثله . فقد تقلد الزهاوي مناصب في الدولة كثيرة وكانت يوماً له ويوماً عليه ، وكان في ذلك واحداً من كثيرين وقد تعددت صفاته في فنون الادب ، فشغف بالعلوم الطبيعية ، وألف كتاب « الكائنات » وكتاب « الجاذبية وتعليلها » وكان فيها واحداً من مئات الغواة . ومن غرائب إجتهاده وتنوع علومه إنه كتب رسالة في سباق الخيل وكتاباً في علم الداما . وفي هذا الكتاب العجيب ذكر الف لعبة من مخترعاته ؟ فلو لم يكن

الزهاوي شاعراً وطنياً لقلنا ان في تعليم الامة لعب الداما وظيفته الاولى . ولكنه شاعر كبير بالرغم عمـــا في شعره من مبتذل القول مثل :

العلم ثروة امة ويسار   والجهل حرمان لها وبوار

. . .

ان التوقف في زمام حازم   فيه تقدمت الشعوب لعار

. . .

من راح يمشي في الطريق مستو   أمِن العثار فما هناك عثار

ومثل قوله في مطلع قصيدة « الجهل والعلم » :

الا ان ليل الجهل اسود دامس   وان نهار العـــلم ابيض شامس
وتشقى حياة مالها من مدرِّبٍ   وتشقى بلاد ليس فيها مدارس

هي حقائق لا ريب فيها . ولكنها من الحقائق المعروفة المبتذلة ، وقد اصبح الاعتقاد بها عند الغربيين من باب الاعتقاد بوجوب الرياضة مثلاً او الاكل . اما عند العرب فالامر غير ذلك . وانه ليغتفر للشاعر في امة تطرب للشعر طرب الغربيين للموسيقى اذا وضع لها حقائق كل يوم — حقائق ايام العمل — في قوالب شعرية .

من مزايا الشاعر الحقيقي ان البؤس في الامة يحزنه حتى الالم ، فيصبح كأنه هو الامة البائسة الموجوعة ، فيسمع صيحته من قد خشنت او تخدرت من الآلام اعصابهم ، فيستفيقون طالبين الدواء والشفاء . هذه هي وظيفة الشاعر الكبرى في امة كان للعلم فيهـــا ربوع زاهرة أمست كالقفر اليباب .

ولكن في شعر الزهاوي غير هذه الحقائق — حقائق ايام العمل . ان فيه كثيراً من حقائق الآحاد ايضاً والاعياد ، هو الشاعر الذي يبهجه

اريج الازهار ، وبريق الانوار ، فيود لو كان بامكانه ان يداوي بهـا البؤس والظلام ـ البؤس الذي منشأه الخمول ، والظلام الذي هو الجهل .

اننا نقدس سراً في الاكوان . فحبذا ما نقدس دواء لما نقاسية . حبذا الحياة ، حياة النمو العارم والتجدد الدائم . ولكن الجهل عدو هذه الحياة وعدو الله ، والمتاجرون بالجهل رؤساء الاديان ، ورؤساء الاديان في كل بلد لا يخفّ شرهم الا بمثل الزهاوي والرصافي وشعرهما. وها هنا في هذه الامة الجديدة سبب التغيظ الجديد ومصدره . اولئك الجامدون في مكانهم وفي علومهم يكفرون الناس فيدفعون ذوي النبوغ فيهم الى الكفر بالله . فيخرج الزهـاوي اذ ذاك من المبتذلات ، ومن الوطنيات ، وينظم ديواناً كاملاً في « نزعات الشيطان » فيسمعك من الحقائق التي هي كالنصل اليماني . ويسمعك بعـد الزمجرة ضحكة لا تنسى زمانك صداها وصدى التهكم فيها .

توقفت لا ادري تجاه الحقائق أأني خلقت الله ام هو خالقي

ان الزهاوي في « نزعات الشيطان » مثـل ابي العلاء في (رسالة الغفران) وقد يفوق معري اليوم معريَّ الامس جسارة وبريقـاً . فتصل يد شيطانه حتى الى العرش الاقدس ، وحتى الى لحية صاحب العرش . على انه بعد التطاول والتجديف يستغفر الله ويعود الى عمل كل يوم فيرى الغرب في الشرق فاغراً فاه ، ضاربـاً بعصاه ، فيزجره بالمبتذلات ويهدده :

يا ايها الغرب ان الشرق مضطرب
يا ايها الغرب ان الشرق مغتَصب
خفف من الوطء فـالايام تنقلب
الشرق يشبـه بركاناً به حمم

الملك فيصل والعراق

اخــاف من انه يا غرب ينفجر
يا سرحة المـــاء انت اليوم وافرة
وانت ناعمـــة خضراء ناضرة
لا تأمني الدهر فالايام قاهرة
يا سرحة الماء ان جاء الخريف غدا
فانمـا هـذه الاوراق تنتثر

ثم بين التجديف والتعنيف يسمعنا الشاعر من نغماته الناعمة الصافية ما هو من صميم الشعر الذي يستاثر بمعناه الايماء، فالسكوت، فترى الدمعة فيهما تروي الابتسامة، وترى الابتسامة تحضن الدموع كما يحضن ورق الورود الندى. من ذلك قوله مخاطباً سماء العراق :

انظريني اذا العنادل غنت سحراً فوق منكب الشجراء
انظريني ليلاً اذا الشمس غابت بعيون النجوم في الظلماء
انظريني اذا الطبيعة اصغت في الدياجي الى خرير المـــاء
انظريني اذا الحوادث رامت هدأة في الصباح او في المساء
انظريني اذا الخريف تراءى آسيـاً من اشجاره الجرداء
انظريني اذا غدا الروض خلواً من زهور او زهره من وراء
انظريني من الفروج خلال الـ ـسحب سراً بعينك الزرقاء
انظريني اذا نظرت بعيني وهي شكري اليك عند البكاء

كاظم الدجيلي

ان في العراق من العلماء من لا يزال في المعقل الذي مات فيه «ملفان» المسيحية يوم قضى على ما كان للكنيسة من سيادة ثقافية في العالم. ومهمة الملفان في مراقبة اداب الدنيا والدين لم تكن لتنحصر بالكنيسة الكاثوليكية،

بل تجاوزتها الى علمـــاء اكسفورد (١) البروتستانتيين الذين كفروا في النصف الاخير من القرن الماضي دروين واصحابه لقولهم بمبدأ النشؤ والارتقاء على ان زمن الا « ملفان » في المسيحية قد ولى .

اما في الاسلام ففي بعض الاقطار كالعراق مثلًا لا يزال العالم يحمل سهام التحريم والتكفير ، يرمي بهما من خالفه رأياً في اداب الدنيا والدين ولا يحق للشيعة وحدها ان تفاخر بمثل هؤلاء العلماء وان كثر عـددهم عندها . فان عند السنة منهم من يسوّد الوجه حتى يخفى على « ملافين » كربلاء والنجف .

وهناك في تلك البقعة النائية عن دوائر العلم الغربية بعض رجـــال الدين المسيحيين الذين يضيق صدرهم كل مرة يُسمَع في البلاد صوت حر كريم ، فيصدرون الفتاوى بالتحريم والتكفير اقتداءً بفضيلة الشيخ الاعظم و « آية الله » الاكبر . وما الفرق يا ترى بين ثلاثة هم واحـد تجاه الحقيقة ؟ الا ان الكرملي والالوسي والقزويني لثلاثـــة رؤوس هي التقليد والتقييد والتعقيد ، على جسم واحد ، هو التعصب .

وكلهم يكفرون الزهاوي والرصافي والدجيلي ، ثالث المغضوب عليهم هناك . على انه في التساهل والصراحة والجرأة الفكرية علم من الاعلام وقلما يُعد احد قبله . الشيخ كاظم الدجيلي فيلسوف ينفر من الخيال ، وشاعر يهوى صدق المقال ، وليس في ظاهره ما ينبىء بوجود الشاعر فيه او الفيلسوف . ليس في طلعته او في صوته ما يستميلك اليه او يستوقفك وانت غريب . بل في وجهه المخروط الضامر ما يشير الى النزق والتسرع ، اللهم اذا قسنا التكوين الالهي بمقياس الفن الانساني ،

---

(١) اكسفورد اكبر جامعات انكلترا وهي المدينة التي تدعى بهذا الاسم . والملفان يدعى في اكسفورد « دون » Don

فنقول ونستغفر الله ، قد ارتجفت يد المكون في تكوينه ، او ان الناظم اخل بالنظم فلم يكُ موزوناً . هاك وجه الدجيلي عيناه بعيدتان الواحدة عن الاخرى ، فمه وانفه كبيران بالنسبة الى صفحة وجهه ، شعر رأسه وهو دائماً قصير يظهر انه ملتصق بجبينه . اما الرأس ففيه من الاذن الى القمة طول يخالف ايضاً قواعد التناسق ، وهو الدليل الظاهر الوحيد على ما في الرجل من قوى التفكير والحكمة ، وليس في صوته اذا حدثك ما ينسيك ظاهر صاحبه ، او يستغوي الغرض فيك ، فهو دائماً عالٍ رفيع لا منخفضات فيه ولا منعطفات . تنفر منه لاول وهلة ولا غرو ، الا انك بعد ان تألفه ترتاح الى الوتر الواحد فيه . وقد تكون المادة التي يحملها ويرمز اليها السبب في ذلك . انما هي لب الرجل وكنهه ، هي حقيقة وجوده .

أن الدجيلي عقل كله ، عقل صاف لا يمازجه شيء من الروح والقلب . فيه نور الشمس ونارها ، وليس فيه ظل او خيال . وهو في حريته مثل نور الشمس يحرق وينير ، ويحرق احياناً نفسه قبل ان يحرق سواه . ما اجتمعت في البلاد العربية برجل مثله في صراحته وجرأته واخلاصه . وانت في الشرق ، حيث اللطف ضارب اطنابه والتجمل حامل ابداً محرقة الطيب ، لتعجب بالدجيلي ضعفي اعجابك بمثله في اوروبا اوفي اميركا . وما تأثير الظواهر بعد ان ينكشف النقاب عن هذه العقلية الباهرة .

رجل ولد في مهد التقليد والتقييد والتعقيد وهو اليوم مطلق منها كلها . ينبذ المذاهب الدينية ، ويحمل عليها ، ولا يحتفظ بغير اللب من الدين . له في الحياة عقيدة مادية يجهر بها ويناضل عنها ، شغف بالقوة القاهرة وهي عنده الحق ، لا يرثي للضعيف ، ولا توقفه زخارف

التلطيف واوهام الغيرة والاحسان . هو في شعره اقرب الى شعراء الجاهلية من حيث لا يرى الا ما يُرى من حقائق الوجود . ولكنه في ذلك عصري ، اي انه اتخذ هذه الطريقة لانها تساعد اكثر من سواها في تجريد الاداب من ترهاتها ، والاديان من خزعبلاتها ، والانسان من اوهامه كلها .

يذكرني الدجيلي بشاعر انكليزي من شعراء الشطر الاخير من القرن الماضي جرد شعره من حلي التقاليد الصناعية كلها — من زخارف الخيال ، من اوهام الآمال ، من مصقول المقال ، فجاءت قوافيه كالبرق يشق الظلمات ، وكلماته كالنصال وقد جردت من الاغماد . هو الشاعر الكبير شعراً لا شهرة ارنست هنلي[1] القائل :

ولو احيقت بي الظلمات والاعصار ،
وكان الليل من القطب الى القطب كالقار ،
فالى الامام ولا اندحار ،
اني ربان هذه النفس ، اني سيد الاقدار .

وكأن هنيلي وقد كان معاصراً لنيتشي الفيلسوف الالماني الشهير يردد شعراً احدى كلماته الملتهبة او شيئاً من فلسفته المكهربة . — الارادة الارادة . العزم العزم . الاعتماد على النفس . قهر الضعف فلا تمكنه منك . القوة اولاً واخراً . خذ هذه الفلسفة نظماً من شاعر عربي عصري من « هنيلي » الشيعة ، من « نيتشي »العراق . قال الدجيلي في مطلع قصيدة « الحياة الاجتماعية » :

حديثك عن غير القوى حرام وسعيك في نصر الضعيف اثام

Ernest Henley (١)

تحدث بمجد الاقوياء ففيهم قعود باحكام الورى وقيام
يؤمله مذ صار ابن آدم قوة وما الكون الا قوة ونظام
اذا كنت بين العالمين اخا قوى رعتك عيون الناس حين تنام
حمى الغاب بأس الليث من كل طارق ولم ينج من فتك البزاة حمام
يقولون ان الحق من فوق قوة وما الحق الا مدفع وحسام

لولا ما في هذه القصيدة مما لا يخلو شعر عربي منه ، اي العادي المبتذل من الفكر والتعبير ، لجاءت في تجردها ، مثل شعر هنيلي ، من اوهام الخيال وزخرف الآمال ، فريدة في بابها . وقد تطرق الشاعر فيها الى ذكر الاديان فقال :

حكاية اديان الانام عجيبة تجمع فيها فرقة ووئام
تريد الهدى والخير للناس كلهم وكم ثار منها فتنة وخصام
وغايتها القصوى عبادة واحد حقيقته ما ان ترى وترام
عظيم لديه يصغر الحق كله وتستصغر الاجرام وهي عظام

مهما كان من تزعزع عقيدة الشرقي فلا يحمله ذلك على الالحاد . بل يظل مؤمناً بالله في ما صفا وتعكر من امره وخمره . وعلى ذكر الخمر ان للدجيلي اسهماً في شركة الخيام وابي النواس كما له في شركة ابي العلاء المعري . فقد وصف الخمر ومدحها وذمها كذلك بعد الاختبار فكان في الثلاثة صادقاً .

ألم يك ما نظمت بها صحيحاً ؟ فلي فيها تجارب واختبار

وقد جاء في قصيدة له عنوانها « بوليس بغداد » وهي احدى « منظومات السجن » :

ادرها علينا بالكبير فاننا كبار ومن شأن الصغار صغيرها
متى يهدر الابريق عند انسكابها علينا يزدنا من هواها هديرها

وفي هذه القصائد من التجريد ، ومن القول الصريح الشديد ، ما يجيز المقابلة بينها وبين « منظومات المستشفى » للشاعر الانكليزي الذي ذكرت .

الى ان وردنا السجن والسجن ضيق　　وقاعته محدودبات صخورهـــا
يشم حديث العهد منها نتـــانة　　يزيد اذا اشتد الهجير ظهورهـــا
وفي الصبح ساقونا الى متحكم　　باحكامه غر حكاه غريرهـــا
وعاقبنا كلاً بعشرين جـــلدة　　فجيء باسواط دقاق سيورهـــا

في آداب الافرنج وفنونهم طرائق شتى تشمـــل اغراض الحياة وطبائع الناس كلها . منها ما يدعى الواقعية وهي طريقة من يلـتزم فى ما يصف او يفصح عنه الحقيقة المجردة ، دون مبالغة ودون تنميق . وقد يجوز اهمال بعض اجزاء فيها حشمة ً ولياقة ، فلا يتقزز القارىء ولا ترتعـد فرائصه . وهناك طريقـــة اخرى نشأت بعدها لتسد فراغاً مزعوماً فجاء اصحابها وفي مقدمتهم اميل زولا بكل ما هناك من هول الحقائق الواقعة ومرعبات الوجود ، وفي شعر الدجيلي شيء من الطريقتين :

يا لك من آمرة ناهية　　احكامها نافذة ماضية
جامعة الاضداد شيطانة　　الاهة رشيدة غاوية
قاسية رفيعة الحاشية　　سافلة عالية راقيـــة
خبيثة شريرة باغيـــة　　طيبة طاهرة زاكية
يدفعها النفع على حب من　　ينفعها ولو الى الهاوية

ليست المرأة من يصف بل هي ... النفس التي حيرت افكار ارباب النهى السامية . وقد قال فيها ما لا يخرج عن الحقيقة ، فكان في هجوه صادقاً ولكنه جـائر . والجور من شيمة الـ « نيتشيين » وقد قال في

عبادة الناس لله :

عبد الناس الهاً ما رأوه ورآهم
طمعاً فيه وخوفاً منه هل يخفى هواهم؟

بل قال اكثر من ذلك ولم يستثن حتى نفسه او يتناسها :

اري حياة الورى جهاداً في معرك دائم النضال
يخدع فيه الفتى اخاه والخدع قد جاز في القتال
كل امرىء ناصب حبالا حتى انا ناصب حبالي

ان ادب الشاعر الحقيقي وان افقره لَيقيه من حبائل مثل هـذه الحياة ، وان علم العالم واخلاقه ليرفعانه عليها فيسلك مسلكاً يغاير ما يسجله على نفسه . هذا لعمري فضل الادب والعـلم حتى في من كانت عقيدتهم بالحياة مادية دهرية . والشيخ كاظم الدجيلي بعيد عن التعصب العلمي بعده عن التعصب الديـني . سألني مرة رأيي في الارواح واستحضارها فقلت : لا اصدق ولا انفي . يهمني درس الموضوع ولا يلذ لي التشيـع . فقال : وانا من رأيك . الحياة اضداد . وقد تتخذ الارواح لها جسماً من الكهرباء في الفضاء . وقد تكون الكهرباء البحر الذي تعيش فيه الارواح بعد الموت كما يعيش السمك في المـاء . بل قد تكون هي مصدر الكهرباء وكنهها فيمتزج بعضها بعد الانفصال عن المادة في الفيض العام ، وبعضها تضل مدة على كونيتهـا الارضية فتزورنا اذا رغبنا بزيارتها وتبلبل افكارنا .

ان هذا مثال من عقلية الرجل العلمية . اما عقليته الوطنية فالحدة تغلب فيها ، بل هي غالباً في حـالة الاضطرام . اذكر يوم كنا في كربلاء انه تكلم في مجلس غص برجال الشيعة اخوانه وكانت الصراحة تسابق التسخط في حديثه فاشفقت عليه من نقمة المتعصبين . سمعته يمدح

الامة الانكليزية لما فيها من علم وقوة ونظام ثم صاح بهم قائلاً :

ــ اين العلم واين القوة واين النظام عندنا ؟ أفي حكوماتنا العربية والعصر الماضي الذي تسمونه مجيداً انما كان عصر السفاحين؟ افي مدارسنا وقد عشش الفساد حتى في الكتاتيب؟ أفي بيوتنا وقد تراكمت في زواياها وفي صحونها اوساخ التقاليد وعفونة العادات القديمة ؟ أفي ديننا وقد حلت الخرافات والقداسات المزعومة محل اليقين والعمل المفيد ؟

هو ذا الدجيلي يقرّع ابناء قومه ، ابناء مذهبه ، فلا عجب اذا افتى المجتهدون غير مرة بتكفيره .

مجيد الشاوي

ها قد عرفتك ايها القاريء العزيز الى ثلاثة ممن يكفرونهم في العراق . اليك الان بسجل الكفرة كله . ان الرابع في السجل الكريم عربي تجاوز العقد الخامس من العمر ولا يزال فتيــاً ــ فتياً برأيه ، فتياً بلهجته ، فتياً بروحه وبواجب راحــه . قد شغل هذا العربي مناصب متعددة في الحكومة ، وما خرج من واحد منها آسفاً . هو من اولئك الموظفين القليل عددهم الذين يعطون المنصب اضعاف ما يأخذون . فيخلصون الخدمة ، يعدلون ويصلحون ، ولا يكون جزاؤهم غير جزاء من لا يعدل ولا يصلح . يبذلون من قواهم ومواهبهم خيرهــا ، ويخرجون من دار الحكومة والفقر يشيعهم الى البيت . على ان النزاهة ترافقهم ايضاً وتلزمهم دائماً فتعزيهم بعض التعزية .

ان الرابع ممن اخص هــذا الفصل بذكرهم هــو عبد المجيد الشاوي ، الشيــخ عبد المجيد ، الذي يشبه السياسي الافرنسي كليمنصو ، ليس فقط في وجهه بل في ذكائه المتأجج وسلوكه البسيط الشاذ .

وقد تكون صورة الاسد في وجـه الشيخ عبد المجيد اظهر من صورة النمر . الا انه في صوته لا يهدر ولا يزمجر .

كنا في بهو الانتظار ننتظر الامر لنصعد الى بهو الاستقبال فنسلم على جلالة الملك فيصل نشترك بالواجب الآخر الذي دعينا له. وكان في المدعوين للمأدبة من الانكليز العسكريين والمدنيين من جاؤوا في اثوابهم الرسمية ونياشينهم تتلألأ على صدورهم ، ومن جاؤوا يلبسون الاسود القاتم وقد صقلته المكواة وعززت اطرافه وحروفه ولم يكن بين الوطنيين الذين ارتدوا كذلك الاسود المصقول ، والابيض الناصع المكوي طوعاً للامر الملكي المطبوع بماء الذهب على رقاع الدعوة ، غير واحد لم يكلف نفسه الطاعة وما تستوجبه مثل هذه الرسميات جاء في ثوبه الافرنجي اليومي وقد اكسبه الزمان لمعة في حناياه ، وهو يلبس قميصاً — استغفر الله اذا العين اخطأت او الذاكرة - لا تعرف النشاء حتى ولا المكواة . هو عبد المجيد الشاوي ، شيخ المعريين في بغـــداد .

كان اول اجتماعي به تلك الليلة فاتحة الحب والاعجاب .لم يزرني في الفندق ، ولم يسعَ اليّ في مكان آخر مثل غيره من الاخوان . ولكنه قال عندما تصافحنا: نحن ابناء عم وليس بيننا واجب المجاملة و اللياقة. فلم افقه مراده ولم اتظاهر بغير ذلك . فقال : انت ابن المعري وانا ابن الخيام . والاثنان اخوة . ليس في الانساب اشرف من هذا النسب . اهنئك واهنىء نفسي .

واذا انتسبت وقلت اني واحد   من خلقه فكفى بذاك تنسبا

اراد المعري بقوله من خلق الله . ونحن فكراً ومبدا من خلق المعري .

فقال احد الحضور : ولكن المعري كان متقشفاً الى حد النسك .

فاجاب الشيخ مجيد على الفور : لزوم ما لا يلزم . ونحن كذلك نتقشف الى حد الاضطرار .

فقال اخر : والمعري يذم بنت الحان .

فاجاب الشيخ الذي أمسى نقطة الدائرة : والخيام يمدحها . وهي تستحق الاثنين . الذي ينقص المعري يكمله الخيام . هما خير الرسل ، رسولان صادقان كريمان سويان — فبأي الاء ربكما تكذبان .

وقد برهن الشيخ عبد المجيـــد تلك الليلة على انه من اتباع الاثنين الصادقين . رأيته الى المائدة يحسو من المشعشة الذهبية الكأس تلو الكأس وسمعته يردد من اللزوميات وهو يميل الى جاره السيد افنان :

رويدك قد غررت وانت حر   بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحـــاً   ويشربهـا على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء   وفي لذاتها رهن الكساء

ثم رفع الكأس ولم يبق فيها غير النزر فشرب وقال :

وقد شرب الدهر صفو الانام   فلم يبق في الارض الا العكر

ليس الشيخ عبد المجيد[1] من اصحاب القوافي الا ان تكون لغيره . وكأني به لا يضيع وقته في النظم وعنده اللزوميات يستعين بها على الزمان واضاليله . ولا هو ممن يسودون الاوراق ويبيضون مع انه غزير المادة ، صافي الذهن ، سريع الخاطر ، لا يكبو يراعه اذا راح عاديا في مضمار الانشاء . ولكنه مثل سقراط يفضل الكلمة المقولة على الكلمة المكتوبة . هو عبد المجيد كتاب لنفسة ، يقرأ منه في المجالس ،

(١) رحمه الله ، جيء به مريضا الى بيروت في صيف عام ١٩٢٧ فما افاده تغيير الهواء ، ولا نجع فيه العلاج والدواء .

ويعيد كلماته ويمكنها حسبما تقتضي الحاجة . لا يداري ، ولا يحابي ، ولا يتهيب احداً . هو في صراحته مثل الدجيلي والرصافي ، ولكنه في سرعة خاطره ونكتته وميلـــه الى الاحماض اشبه بالنقيب السيد عبد الرحمن .

كنا يومـــاً في مجلس ابن النقيب السيد محمود فدار الحديث على حروب النبي محمد وما كان يظهر فيها من حنان صاحب النبوءة وحلمه . فقال الشيخ مجيد : حنان الذئب على الشاة : واين الحنان واين الحلم ، رعاك الله ، في تحليله الرق واباحة النساء لرجاله . كانت حروبه مثل حروب تلك الايام ، ولا تختلف عنها الا بالدعوة ... وما ذنب النساء في الحروب ؟

فاجاب السيد محمود بان النبي صلى الله عليه وسلم اراد بالنساء خيراً حينما كان يجيز سبيهن واسترقاقهن . لانـــه اذا دخلت جنود الاسلام بلداً فمن باب الشفقة على النساء يأخذ كل محارب قسمته منهن فيعولهن ويحميهن .

فقال الشيخ عبد المجيد : هذا من باب الاجتهاد . ما اظن في النساء قديماً وحديثاً من ترضى ان تكون عبدة اسيرة خوفاً من ان تموت وهي حرة من الجوع . دفاعك مثل دفاع الذئب عن الشاة عندما وثب عليها ليحميها من الضبع ... لا نزال متأخرين ، متأخرين جداً يا سيد محمود ، اذا كنا نرى شيئاً من الحق في مثل هذا الدفاع عن مساوىء اجدادنا وفظائعهم ... الغريب في امرنا نحن المسلمين اننا لا نتقدم الا اذا رجعنا الف سنة الى الوراء ، لا نرتقي حقاً الا اذا رجعنا الى ابي العلاء المعري . فننبذ الاضاليل كلها وننبذ المتنطعين من علمائنا الذين يبثون الاضاليل ويثبتونها في الناس .

تكذب العقل في تصديق كاذبهم　　والعقل اولى باكرام وتصديق

وقد قال ايضاً المعري ونعم القول :

ولا تطيعن ّ قوماً ما ديانتهم　　الا احتيال على اخذ الاتاوات

ان الشرائع القت بيننا احناً　　واودعتنا افانين العداوات

نعم ، وفي قلوبنا منهـــا السم ، وفي عقولنا العفونة . يضحكني ويبكيني صياح شعرائنا وخطبائنا . يهددون الغرب بنهضة الشرق . ولعمري يجب ان ينهض الشرق على نفسه ، قبل ان ينهض على الغرب ومدنيته . ولا نتقدم نحن المسلمين الا اذا عدنا الف سنة الى الوراء — الى المعري ابي العلاء (١) .

ابن خلكان والعراق

وفي العراق من الادباء كثيرون من هم شغفون بالحرية وبروح الادب الجديد . ولكن هذا الفصل يضيق دون ذكرهم ، وهـــذا الكتاب ، « ملوك العرب » لا يسمح بفصل آخر اخصه بهم . الا اني افسح لكبيرهم محلاً لا منناً فنقف — ولا كرسي آخر للجلوس بين من ذكرت .

هوذا دائرة معارف ادباء العراق وابن خلكانهم ، صديقهم الاكبر ، حامل لوائهم ، وناشر آثارهم ، روفائيل بطي (٢) . وهو منهم في الصف

(١) ما اصدقها كلمة ، وما ابلغها ، وما اجدرها بالنقل والترداد . خذوها عن الشيخ مجيد واسترحموا له الله . انها لمن الحكم التي تضمن الخلود لاصحابها : فكم من شاعر وكم من اديب تغلب على النسيان والفناء بكلمة بليغة ذهبت مثلا او ببيت من الشعر تغنت به الركبان .

(٢) توفي في ١٠ نيسان ١٩٥٦ — الناشر

الاول . فقد حمله حب الاداب العصرية على تأليف كتاب « الادب العصري في العراق العربي » : هو عمل ادبي كبير جدير بالبطي المعروف بنشاطه واخلاصه ، وبذوقه وغزارة علمه . لذلك سميته دائرة معارف ادباء العراق وابن خلكانهم .

ولروفائيل اسلوب في الانشاء سهل منسجم جلي ، لا تكلف فيه ولا اغراب . وله في معالجة المواضيع مزية مستحبة ، هي انه يقف عند حد بين الاسهاب والاقتضاب فلا يطولها على نفسه فيمل ، ولا يقصرها على القارىء فيضل .

هاك مثالاً من الكتاب الذي اشرت اليه :

قال في الزهاوي :

« نشأ الزهاوي في بيئة تصوحت ازاهير الادب فيها بعد الازدهار ، ودرست معالم العلم بعد ان ناطحت بعلوها الفضاء ، فراعه الجمود الهائل المستولي على المفهوم والاقلام ، واستنكر الطريقة البالية التي يتبعها النظامون مقلدين غير مبتكرين ... فلم تأنس روحه الناهضة هذه الخطة ، وعز على عقله المتوقد ذكاء ان يبقى مصفداً باغلال تقليدية . »

وقال في الرصافي :

هو اول شاعر جاء قومه العرب بما يحبون وصارحهم بما لا يحبون . لم يعرف للتقليد او الخضوع للبيئة معنى لا في صناعته ولا افكاره . كان من شعره صيحات عملت على تقويض معالم الاستبداد الحميدي ، كما انه ما لبث بعد تحية الدستور العثماني واستبشاره به ان رجع ينعي على القوم تخاذلهم لما شام فيهم من الرجعة . »

وقال في الدجيلي :

« لو كان للعلم والادب قيمة في هذه الديار لكان للشيخ كاظم

الدجيلي مجال واسع لاظهار مواهبه وجلده على البحث . ولو كان لحرية الفكر حرمة في هذا القطر لرنت حقائق الدجيلي في شعره رنة تحدثت بها المجالس . »

ان روفائيل ايضاً من الشعراء العاملين في السبيل الذي فيه التحريم والتكفير . وسيكفرونه ولا شك تكفيراً مضاعفاً لانه يسيء الى اصحاب العقائد والاداب العتيقة اساءتين في الفكر وفي الطريقة . اجل، هو من انصار الشعر المنثور . وقد قال قصيدة له عنوانها « النابغة » :

وجدتني في مجاهل ارض كل ما فيها يثير الدهش والذهول .
ورأيت نفسي مكبلاً بسلاسل التقليد ، سجيناً في قفص
الاوهام ، اسير عادات ، ورهين اوصاب .
حطمت السلاسل ، وكسرت القيود ، وقوضت جدران الوهم،
وانعتقت مما درج عليه اجدادي
فصاح اخواني وضجوا ، واعولوا وبكوا .
رأوني خارجاً من سجنهم اتمتع بحرية هم منها محرومون .
شاهدوني ارفل بصحة وسلامة ، وهم في آلامهم يتعذبون
اولئك الذين يتخذون من جهل الشعب علمهم ، ومن ضعفه
قوتهم .

الملك فيصل والعراق

حجر الزاوية

الشعراء والسياسيون – المدارس العالية – المدارس العامة – بوتقة الوطنية – في دار المعلمين – المدارس في العراق – الطريقة التركية في التعليم – الانكليز يقاومون فكرة اللاطائفية – مساعدات الحكومة للمدارس الخاصة – الحاجة الى معلمين – هل السوريون والمصريون اجانب ؟ – ساطع الحصري – حديث عن المعلمين السوريين – معمل الشوكولاته ودار المعلمين – استعينوا بالسوريين والمصريين .

الاعلانات في الاسواق – « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » – « لا حياة بغير العلم » – « العلم اساس العمران » – المعهد العلمي مصدر الاعلانات – عميد المعهد ثابت عبد النور يصطدم بعمد الحياة – لماذا خلق الله الانكليز ؟ – لماذا خلق الله الخواتين ؟ اخوان ثابت في المعهد – حفلة سوق عكاظ – قف عند العمود واتل الاية – ثابت يهتدي – ثمرة الاعلانات – تعليم الاميين – بعد عودتي من نجد – لماذا خلق الله ثابت عبد النور ؟ – ليعلم الاميين الألف باء – المدارس الليلية المجانية – دورة التفتيش – ثابت يمشي في الليل ولا يصطدم بعمود واحد – المبادىء الاجتماعية الخمسة – حجر الزاوية – الملك فيصل يساعد المشروع – هارون الرشيد يزور متنكراً المدارس الليلية .

ليس بالشعراء والادباء يُستدل على ترقي الأمة ، ولا بالسياسيين والصحفيين تُسير العقلية المدنية فيها . فقد تمتاز امة بتعدد شعرائها وادبائها ولا تمتاز بوطنيتها وقد يدير المحنكون من الساسيين شؤونها ولا يعززونها ، وقد يقود الصحفيون الرأي العام وليس فيه روح مدنية ترفع البلاد المفككة الاوصال الى امة صحيحة سالمة موحدة المقاصد ، موثقة العرى .

لم يبق اذن غير المدارس العامة نعتمد عليها في تحسين عقلية البلاد المدنية وتوليد روح وطنية جامعة راقية عاملة . بل هي سياج الوطن وفيها عز الملك وشرف الامة .

ولكنها لا تكون كذلك ، لا تفلح في التكوين ، الا اذا كانت البوتقة واحدة لا تتغير بتغير المكان والمذهب واللغة . ان بلاداً تعددت شعوبها ، ومذاهبها الدينية ، ولغاتها لا يتكوّن منها وطن عزيز الجانب ، رفيع الشأن ، مهما كان سلطانها ، مهما كان جيشها ، مهما كانت ثروتها ، الا اذا قامت فيها مدارس عامة ، مجانية ، لا مذهبية ، تتمشى كلها على برنامج واحد ، ويكون التعليم فيها بلغة واحدة هي لغة البلاد الاصلية .

ماذا في العراق من هذه المدارس اليوم ؟ استبشرت باول حفلة دعيت للخطابة فيها وكانت في دار المعلمين . فاجتمعت هناك بوزير المعارف يومئذ السيد هبة الدين الشهرستاني ومستشاره الانكليزي والمدير الاستاذ ساطع الحصري ، وبزهاء مئتين من المدرسين في المدارس الابتدائية وفيهم نفر من السوريين والمصريين . كانت الحفلة عامرة بالخطباء والشعراء وكان الحديث بعد الحفلة موضوع المدارس والتدريس ، فنم عن اشياء نثبتها بعدئذ من مصادر شتى ، وهي مما يستوجب الاسف .

لقد ارتكب الانكليز في العراق اغلاطاً هم انفسهم يعترفون بها او ببعضها ، فمنها ما كانوا فيه مسيرين ، ومنها ما كانوا فيه متعمدين ، وهم لا يعتبرون هذه من الاغلاط . مثال ذلك التعليم الابتدائي .

عندما دخل الانكليز العراق كانت الطريقة في التعليم تركية ، اي ان الدولة اجازت انشاء المدارس الاجنبية الطائفية ، وكانت تخصها

بشيء من المساعدة المالية . وفي هذه المدارس كان يتعلم التلاميذ دينهم ولغتهم اولاً ، ثم مما لا يضر بالروح الطائفية العنصرية من العلوم . لا يخفي ما في هذه الطريقة من عوامل التفريق واسباب الشقاق . واذا خفي على الشرقيين فلا يخفى على الانكليز الذين تمشوا مع ذلك في التعليم العام على طريقة الاتراك . وهذا ما يؤسف له جـــداً . كأنهم ارادوا ان يثبتوا الامة في طائفياتها وتقسيمها ومع ان في العراق من ينصرون الطريقة الحديثة المجردة من المذهبية ، ويطالبون ببرنامج واحد في التعليم وبلغة واحدة ، والاستاذ الحصري في مقدمـة هـؤلاء المصلحين ، فحكومة الانتداب لا تقبل بذلك . وما عذرها غير عذر الخائف من تسليح خصمه فيخرج عليه متحد القوى .

اما قول الانكليز ان اهـــل العراق غير مستعدين اليوم لبرنامج يوحّد التعليم العام ، وان الحكومة لا توحد اللغة في الاقل فتجعل العربية لغة التدريس في الموصل وفي كركوك مثلها في بغداد والبصرة ، فهو قول يحتاج الى برهان . لم تقدم الحكومة على هذا العمل ولا الانكليز اذنوا به . قد كان في امكانهم ان يقومـوا في البداءة بنصف الاصلاح فقط ، فتمنع الحكومة عن المدارس الخاصة ــ الطائفية ــ المساعدة المالية وتقـدم هـذا المال ، الذي لا يزال يبذل في سبيل التفريق ، لوزارة المعارف ، وهي احوج اليه لسد نفقات مدارس الحكومة الابتدائية .

ان هذه المدارس تزداد عدداً كل سنة فتضاعف لدى وزارة المعارف الصعوبات في ادارتها . والحقيقة هي اقبال الامة العراقية على العلم اكثر من اهتمام الحكومة في تخصيص النفقات وتسهيل الاسباب . وقد يكون بعض التبعة عليها اي على الامة . ان عدد التلاميذ تضاعف في السنتين

الاخيرتين ، صعد من ثمانية الاف الى سبعة عشر الفاً . وان عدد المدرسين لم يزدد اكثر من ثلاثين بالمئة ، ولم يتخرج من دار المعلمين في السنة الاخيرة غير خمسة وعشرين مدرساً . فما السبب في ذلك . هناك اسباب اولها الميزانية وآخرها الوطنية العراقية . واليك البيان والبرهان .

ليس في العراق ما يكفي من المعلمين العراقيين لسد الحاجة في ازدياد عدد الصفوف والمدارس . ولم تكن في ذلك النفر منهم تلك الجدارة التي يتطلبها التعليم الحديث . حتى وان كانت الجدارة فدار المعلمين لا تكفي لتخريج العدد اللازم كل سنة . ان خير ما يعملون في حل هذا المشكل هو ان يستعينوا بمعلمين من سوريا او من مصر . ولكن الوطنية العراقية تحول دون ذلك .

هب انها وطنية صحيحة ، أفيستغني العراق اليوم عن المساعدة الاجنبية ؟ هذا اذا عددنا سوريا من اوروبا . ولكن القطرين شقيقان لغة ، وقومية ، وروحاً ، ومذهبا . فحبذا وطنية في التعليم اعلى من الوطنية في السياسة . حبذا وطنية مثل التي في مديرية المعارف . ان الاستاذ اباخلدون ساطع الحصري لمن الاخصائيين في علم التدريس الذي مارسه مدة في اماكن مختلفة وحكومات عديدة . وما هو بسوري ولا بعراقي . هو عربي لا غبار على عربيته غير لهجتها. ذلك لانه ، وان كان ولد في صنعاء اليمن ، فقد اقام مدة في الاستانة يخدم الامة التركية . ثم تجرد لخدمة العرب عندما دخلوا الشام فكان وزير المعارف في الحكومة الفيصلية ثم سافر مع من سافر الى بغداد من رجال النهضة وهو لا يزال في وزارة المعارف يدير اهم شؤونها . والاستاذ ابو خلدون من اولئك القلائل الذين حرروا انفسهم وبيوتهم

من قيود التقاليد الاجتماعية . اظن مجلسه هو الوحيد في بغداد الذي تستقبل فيه ربة البيت الزائرين سافرة وتشاركهم في الاحاديث .

اول مرة زرت الاستاذ وحرمه الفاضلة المهذبة اجتمعت في بيتهما بعدد من المعلمين السوريين الذين يعلمون في المدارس الابتدائية واكثرهم من خريجي الجـامعة الاميركية ببيروت . وكانت وزارة المعارف يومئذ هدفاً لانتقاد فريق من الناس شق عليهم ان يروا بعض التفضيل في معاملة المعلمين السوريـين ، فقاموا يحتجون على وجود معلمين اجانب في سلك المعلمين . ظننت لشدة الاحتجـاج ان اكثرهم من الاجانب فسألت الاستاذ الحصري فقال : عدد المدرسين اليوم سبعمئة وعدد غير العراقيين منهم خمسة وعشرون .

ثم قالت حرمه باللغـة الانكليزية : لو كان في العراق دار معلمين ثانية ! ولكن من اين المال ؟ الانكليز لا يساعدون ، والعراقيون لا يستطيعون . وهم يظنون ان دار المعلمـين تعطيهم المعلمين بالمئات . ليست دار المعلمين مثل معمل الشوكولاته يعمل مئة صندوق كل يوم ... ومن هم الاجـانب بين المدرسين ؟ نشكر الله ليسوا باتراك . تأمـل يا مستر ريحاني (كانت تكلمني بالانكليزية لانني لا احسن التركية) انهم ينظرون الى السوري والى المصري نظرهم الى الاجانب . وليس في السلك كله اكثر من ثلاثة بالمئة . عندنا عشرة معلمين سوريين وستة مصريين وتسعة انكليز ، خمسة وعشرون معلماً اجنبياً ، اذا دعوناهم كذلك ، بين سبعمئة معلم من العراق .

اثنان ونصف في المئة كان يجب ان تكون عشرين . ان في نفورنا من الاجانب الاوروبين شيئاً من التعصب في بعض الاحايين ، فكيف بـه اذا كان يشمل من ليس من قطرنا من البلاد العربيـة . الاجانب

السوريون ، الاجانب المصريون ، الاجانب الاوروبيون — ان هذه العصبية لشبيهة بالمذهبية . والويل لنا اذا كانت تحل محل الوطنية العربية والقومية العامة ، ما السوري ، خصوصاً في دوائر التعليم التي هي غير دوائر السياسة ، الا عربياً يساعد في تهذيب ناشئة عربية اينما كانت ، في العراق او في الكويت او في الحجاز . اني اذا لمت الانكليز لاتخاذهم في التعليم طريقة الاتراك الوم العراقيين اشد اللوم في تضييقهم نطاق الوطنية الى حد العصبية المذهبية او بالحري القُطرية فعدوا السوريين والمصريين من الاجانب .

ليست دار المعلمين بعمل شوكولاته كما قالت حرم الاستاذ ابي خلدون ، وليس المدرس من يحسن العلوم التي يدرسها فقط ، كما اوضح الاستاذ في كتابه [1] اما وزارة المعارف في مثل هذه الحال ، اي بين عجزين في المال والرجال ، فهي تضطر احياناً ان تعين من ليس فيهم الجدارة ليسدوا بعض النقص في المدرسين . وكثيراً ما يؤدي ازدياد عدد التلامذة بالنسبة الى عدد المعلمين الى الجمع بين صفين اثناء التدريس ، فيخسر في هــــذا الجمع تلاميذ الصفين . أفلا يجدر بالحكومة العراقية ان تستعين بجارتها ، بسوريا او بمصر ، لتتلافى النقص والخلل ؟

. . .

من يسكن في المدن الحديثة يألف نظره الاعلانات في الشوارع فيراها ولا يقرأها ، كأنها جزء من الحائط او نقش على العمود الملتصقه به . وتمسي عمد الاسلاك البرقية وعمد المصابيح مثل الاشجار لدى الفلاح يصطدم بها فيظنها حجراً في طريقه فيسب بقرته او حماره ولا يسب الشجرة . كذلك كنت في بغداد وهي في عمد مصابيحها ،

(١) دروس في اصول التدريس

وفي جدران شارعها الاوحد [1] ، اشبه بمدينة اميركية يجبهك الاعلان فيها كيفما سرت ، وكيفما نظرت . ولكني مـــا سببت بقرتي ولا حماري ، بل كنت امشي في ذاك الشارع « الجديد » كأني في الدهناء، انظر الى الارض تارة وطوراً الى السماء . فتقاضتني الاقدار يوماً ثمن هذه المكابرة . نعم نطحت عموداً من حديـــد ، فاضطررت ان اقف هنيهة ليعود اليّ صفاء نظري ، فقرأت كرهاً الاعلان الملصق به :

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة

فقلت : والحمدلله . هوذا في الشرق شيء جديد — اعلان للعلم !بل اخذتني نارية صديقي الزهاوي فصحت مبتهجاً : ايها الغرب! تعال انظر ما في الشرق من جديد مفيد . ايها الغرب ! هوذا اعلان يستحيل وجوده في بلادك ، ليس لانه غـــير لازم بل لانه لا يُستثمر مباشرة وليس من يقوم بنفقاته .

قرأت الاعلان ثم قرأته معجباً به مبتهجاً . وصرت بعد ذلك امشي وناظري لسببين على العمود . تباركت اليد الطابعة ، واليد الناشرة ، واليد الدافعة المال . وهذا اعلان آخر : اطلبوا العلم من المهد الى اللحد . وهاك آية اخرى من آيات النور : لا حياة بغير العلم . وهوذا اعلان للامة جمعاء : العلم اساس العمران . واليك على الحائط قاعدة النجاح والسعادة : تهذب وابتغ ما شئت . والاعجب من ذلك كله هو عند باب الـ « سينما » على اللوحة التي تعلن الرواية الاخـــيرة . هنا تقرأ الانذار الاخير : بالعلم تحيا وبالجهل تموت !

---

(١) شارع الرشيد

استطلعت خبر هذه الاعلانات فعلمت ان الحكومة بريئة منها وان المحسنين الاغنياء او الاغنياء غير المحسنين لم يسمعوا بها . ان في بغداد جمعية ثقافية اصلاحية اسمها « المعهد العلمي »، هي مخترع اعلانات العلم ، وهي طابعها وناشرها على نفقتها مجاناً لوجه الله . ايها الغرب — العفو يا صديقي الزهاوي — هوذا الشرق ناهضاً ، وقد نبذ النظريات والخيالات والاوهام . هوذا الشرق ايها الغرب يحتذيك ويفوقك في الغيرة المدنية . هوذا اسلوب في الاصلاح عملي — هوذا مثال واحد من مظاهر النهضة الحقيقية في العراق .

سألت عن المعهد العلمي وسددت خطواتي اليه ، فاجتمعت هناك بعميده الاول ، وهو فيه القوة الدافعة المحركة المدبرة ثابت عبد النور . حدثت ثابتاً فابهجني وازعجني معاً . الفيته شاباً في العقد الثالث ، له من الحسن ما كان ليوسف وعنده من التسخط ما كان لايوب . وهو مع ذلك سليم الجسم والعقل ، براق العين والجبين ، صافي الذهن والصوت ، وطنه فوق مذهب اجـداده ، وشرفه اكبر من دينه . شاب رائع تبسم له الحياة بكل ما فيها من بوادر الامل وبوارق السعد والمجد ، وهو مع ذلك مثل ايوب ، بل مثل « دون كيشوت » حاملا رمحه على الدنيا ، كئيباً على الدوام .

حدثت ثابتاً فازعجني سمعته يشكو ويتسخط ويئن ، كأنه اصطدم بعمود في جادة الحياة ولا يزال الشرر يتطاير من عينيه . — لماذا خلق الله الانكليز ؟ لماذا خلق الخواتين ؟ لماذا خلق السادة الأشراف ؟ لماذا خلق المنافقين والخونة ؟ وجاءني منه بعد ايام كتاب يدعوني لتناول الشاي في بيته — « فتجتمع بصفوة الناهضين او بانموذج منهم في الاقل بشبان وطنيين اثبتت التجارب صدق عزيمتهم واخلاصهم ،

ومقتهم المنافقين وغيرهم من ذوي الالقاب الضخمة والابهة الفارغة الذي ما برحوا يسوقون الامة من سيء الى اسوأ ... الخ» فنسي ثابت كما ترى « صفوة الناهضين » الذين دعاني لاجتمع بهم في بيته .

هم اخوانه في المعهد وفي الجهاد، يسلكون في الاصلاح، اوسع السُبل واطولها، سبيل العلم« تعلم يا فتى فالجهل عار » . وهو عميدهم المسؤول عن الاعلانات في شوارع بغداد . ان في هذا المعهد عقولاً عاملة مخترعة فلا مسوّغ فيه للنفوس المكتئبة . وقد كانت باكورة اعماله واختراعاته انه اعاد الى بغداد الجديدة القديمة احدى المفاخر العربية . اقام جماعة المعهد العلمي سوق عكاظ في عاصمة العباسيين ، وكانت اول حفلة باهرة فريدة بعد التتويج ، حضرها جلالة الملك فيصل فجلس في فسطاط بين النخيل يسمع الشعراء ينشدون والخطباء يخطبون. وكان قس بن ساعدة في مقدمة الخطباء يمثله احد الفتيان الاذكياء ، وكانت الخنساء في طليعة الشعراء تتلو قصيدتها احدى الاوانس المسلمات سافرة .

فاز ثابت وزملاؤه في اقامة هذه السوق التي تقام بعناية المعهد كل سنة ، وحاز فوق ذلك الجائزة الاولى في النثر . وهو مع ذلك يمشي في جادة الحياة الضيقة فيصطدم بالعمُد فيها . احببت ثابتاً ورافقته مراراً . وكنت كل مرة نصل الى عمود في الشارع الجديد اقف امامه واتلو الآية فيضحك . العلم اساس العمران . اليس في ذلك ما يضحك يا ثابت . ان امركم كله جد ، وان من يخترع مثل هذه الاعلانات ويسعى في نشرها لمن اكبر الوطنيين ويحق له ان يفتخر ويفرك يديه. بل يجب عليه ان يشكر الله الذي هداه سواء السبيل . سرّ عنك ودع المنافقين ينافقون . ان لله في خلقه مقاصد لا يدركها الناس. والانكليز

واصحاب الالقاب الضخمة من خلق الله .

نعم ، وعظت ثابتاً ، بيد ان الوعظ ليس من شأني ، ولم اتأسف لذلك بل سررت بالنتيجة . وكيف لا تظهر النتيجة الحسنة وصديقي من الاذكياء النجباء الحكماء . صار يمشي في الجـــادة الضيقة الواسعة دون ان يصطدم بالعمد . ثم جاءني ذات يوم يخبرني انه متابع للعمل الذي باشره بالاعلانات . قد فتحنا في المعهد مدرسة ليلية لتعليم الاميين مجاناً . ثم بشرني بعد اسبوع بفتح مدرسة اخرى خارج المعهد .

. . .

سافرت الى نجد وعدت بعد اربعة اشهر الى بغداد فاجتمعت بثابت عبد النور ودهشت لتغير ظاهر فيه — في حديثه ، وفي وجهه ، وفي خطواته . حدثته فيما ذكر المنافقين . مشينا في الشارع فكانت خطواته اكثر سداداً من خطواتي ، فلم يصطدم ببشر او بحيوان او بشيء من الاشياء الاخرى الجامدة سألته عن مشروعه فقال : نجاحاً باهراً يا استاذ . صار عندنا اربع مدارس في المدينة وهي لا تكفي . تعال الليلة تر بعينك .

مشيت وثابت في الغسق ، في جادات بغداد الضيقة ، وهو ينيرها بانوار آماله العالية واعماله الناجحة . وسرنا الى مدرسة من مدارس المعهد فدهشت اذ دخلت مما شاهدت وسمعت . في الغرفة الاولى التي دخلناها صف الاولاد وسنهم تراوح بين الخمس والخمس عشرة ، وكلهم يشتغلون في النهار فيحرمون التعليم في مدارس الحكومة . هم من الطبقة الثالثة في الامة ، من الشعب ، من العمال ، وفيهم بياع الخبز ، وبياع الليمون وفيهم من يساعد اباه الحداد ، او عمه السنكري . وفيهم من يخدم ليتعلم صنعة من الصناعات . وفيهم الحوذي والبويجي واجير

الحلاق .

وقفت عند صغير الصف فوقف ويده على رأسه يجيب على سؤالي . اخبرني بجرية انه يشتغل في احـــد الافران في النهار ، وانه لا يحب الشغل ولا يحب المدرسة . فقلت : ولماذا تشتغل ؟ فقال : عندي ام وعندها قضيب . فقلت : ولماذا تجيء الى المدرسة ؟ فاجاب : امي تقول اذا تعلمت القراءة والكتابة اتخلص من الشغل في الفرن . واخبرني آخر لا يتجاوز الست سناً بانه جاء المدرسة من تلقاء نفسه مع رفاقه في الحي . وقد بان لي من مجمل الاجوبة ان للأم في هذه النهضة الشريفة فضلًا يذكر .

دخلنا الغرفة الثانية في المدرسة فاذا فيهـــا صف الشبان وبينهم الكهول . جالت عيني في الصف فوقفت عند الكبير فيه ، وهو رجل معمم حسن البزة يناهز الخمسين . همّ بالوقوف ليجيب على سؤالي – النظام على الكبير والصغير – فاشار المعلم تلطفاً ان يقبل رجائي ويظـــل جالساً . اخبرني انه تاجر في السوق يتاجر بالسجاد ، وانه والحمـدلله ناجح في تجارته مع انه قضى السنين فيها وهو اميّ . ثم قال : ولكن الزمان تغير يا افندي والرجل الذي لا يحسن الكتابة والقراءة في هذه الايام يحتقره الناس . فعقّب جاره على كلامه قائلا : ويحتقره خصوصاً الاجانب . عار علينا ونحن نطلب الاستقلال ان لا نحسن القراءة والكتابة . وقال آخر ، افصح الصباغ على يديه بصنعته : انه سمع بهذه المدارس الليلية وكان دائماً يتوق الى تعلم القراءة والكتابة بشرط ان لا يمنعه ذلك عن متابعة عمله في النهار ، لانه صاحب عيال وعليه رزقها . ومثله في صف الشباب والرجال كثيرون ، فيهم الحـــداد والدباغ ، والساعاتي والطيان ، والبناء والحلاق والفران . وكلهم يؤمون المدرسة

الليلية راغبين بجني ثمارها ، شاكرين القائمين بها .

قطعنا الجسر لنزور مدرسة اخرى في الكرخ، فعندما وصلت اليها رأيت عند الباب جمهوراً من الاولاد والشبان يتسابقون ويتزاحمون كانهم داخلون الى الـ « السينما » لا الى مدرسة الفباء . ها هي ذي امة جُنت بالعلم . اخبرني مدير المدرسة بان عندهم ثلاث غرف فقط للتدريس وفي كل غرفة من الخمسة والسبعين الى المئة طالب من الاولاد والشبان والرجال ، وانه لو كان عندهم ثلاث غرف اخرى لامتلأت كلها بليلة واحدة .

هنأت صديقي وزملاءه جماعة المعهد العلمي بنجاح مشروعهم هذا النجاح المدهش . ومما هو جدير بالذكر انهم لا يقتصرون في تعليم الاميين على الكتابة والقراءة وبعض مبادىء العلوم (١) فقد وضعوا لمشروعهم نظاماً اقتطف منه ما يلي :

قد رأى مجلس المعهد العلمي في بغداد انه لا يتمكن من تحقيق مبادئه الاجتماعية اذا لم تستنر الاكثرية بنور العلم الصحيح وتتلقن مبادىء الاخلاق الراقية ... ولهذا فانه عزم على مكافحة داء الامية في بلاد العراق ... فوضع نظاماً لهذا المشروع العلمي وقرر اذاعته مع

(١) الدروس مقسومة الى دورات فيتعلم الطالب :
في الدورة الاولى – قراءة ، املاء ، حساب ، مبادىء معلومات ارضية، مبادىء معلومات مدنية .
وفي الدورة الثانية – قراءة، املاء، حساب ، جغرافية ، تاريخ ، مبادىء الصرف والنحو ، معلومات مدنية .
وفي الدورة الثالثة – قراءة ، املاء ، انشاء ، حساب ، تاريخ ، جغرافية، صرف ونحو ، معلومات مدنية ، مبادىء هندسية .

المبادىء الاجتماعية الآتية :

– حب الوطن من الايمان .

– حب النظافة من الايمان .

– طلب العلم من المهد الى اللحد .

– مقت الكذب واحتقار الكاذبين .

– حب الخير وعمله .

ويجب على مدير المدرسة ان يلقن الطالب قبل كل شيء هـــذه المبادىء الخمسة الاساسية . مدارس ليلية تعلم الامـيـــين ابناء الشعب الالفباء وحب الوطن والنظافة والصدق – هوذا حجر الزاوية في الرقي الحقيقي الثابت . هوذا الاساس الامتن في بناء الامة الجديد ، بنـــاء الوطنية الصادقة ، القائمة على العلم والتهذيب ، المنيرة سبيل الاستقلال التام . هوذا حجر الزاوية، وهو من صنع العراق .

انه وايم الله لاجمل واحب ما شاهدت من مظاهر نهضة العرب في الاقطار العربية كلها . مشروع تعليم بدأ بثلاثين طالباً في غرفة صغيرة من المعهد العلمي فعم في سنة واحدة مدن العراق الكبيرة كلها من البصرة الى الموصل . وان عـــدد الطلاب الاميين الذين يداومـون ويتعلمون ليلاً مجاناً يتجاوز اليوم الخمسة آلاف ، وقد يصل الى العشرة الاف غداً بفضل ادارة المعهد المنظمة واساليبه المبتكرة في التشويق ، وفي جمع ما يقتضيه المشروع من المال . فقد قررت بلديات المدن التي فيها مدارس ان تشترك في نفقاتها .

وهناك عدد من المؤازرين المتبرعين وفي مقدمتهم جلالة الملك فيصل الذي يعطف على المعهد ومشروعه عطف المؤسسين ويخصه سنوياً بمبلغ

من المال . اجل قد اهتم جلالته اهتماماً خاصاً بمشروع تعليم الاميين ، وزار متنكراً المدارس الليلية فشاهد بعينه مظاهر الفلاح . وحبذا التنكر في غير سبيل اللهو والسرور ، حبذا بغداد الجديدة ، وقد ُجنّت بالعلم ، ورشيدها الجديد ينشطها ويساعدها ، فيطوف ليلاً كاحد عامة الناس لا ليحدث الصياد ، ويضحك من العباد ، بل ليقف امام اللوح الاسود ، الذي سيبيض منه وجه الامة ، فيستطلع خبر المتهافتين عليه من رعيته .

والحق يقال ان جلالة الملك فيصل ، مهما كان من شأنه في السياسة والزعامة ، لمن اكبر ملوك العرب غيرة على الثقافة ، وله في بث روح العلم والعرفان ، وفي تشجيع الادب والمشاريع التهذيبية في الامة ، الفضل الذي سيجعل عهده ولا شك ذهبياً مجيداً .

واني اتمنى ان يكون في كل قطر من الاقطار العربية مشروع مثل مشروع المعهد العلمي وامير مثل فيصل الاول يعضد المشروع ، فيُقضى بعد ذلك على الامية والجهل في البلاد كلها .